وَيبكي الرَّحيلُ

رواية

ماستر

سلوى يوسفي

ماستر

ويبكى الرحيل

رواية..

سلوى يوسفي

تصميم الغلاف

بيشوى ظريف

الجمع والإخراج

التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ٢٠١٩/٢٠٨٦٩م

ISBN: 978-977-85571-4-0

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماســـتر ©

٢٠٢٠م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهـــــداء

لا أهدى هذا العمل المتواضع لأحد سوى أنني أهديه لنفسى التي دعمت نفسى، وأصرت أن أضع مولودتي «ويبكي الرحيل...» بعد مخاض عسير استمر لسنوات كان فيها الحلم على رف منسي، فألغت الانتظار حين كان الاحتضار ، وصارت تتحدى بإرادة تنافس الحياة بكل أمل يسعى لتحقيق الحلم مهما اشتد انكساره.

مقدمـــــة

شكراً لله الذي منحني بعضاً من الموهبة..
وشكراً للظروف التى أعطتنى بعض التجربة..
وشكراً للتجربة التي منحتنى كنز الخبرة..
وشكرا لمن رباني، لمن علمني، ولمن عزز ثقتي بنفسي، لمن ساندنى، وشكراً حتى لمن آذاني..
وشكراً لنفسي التي دعمت الأنا، وأهدتني شيئاً مني، استطاعت أن تترجمه عبر قلم وورق..

سلوى يوسفي

إنه يوم عطلة كان فيه الشتاء يُحاور الطبيعة وهو في مزاج عكر، سرعان ما تحوّل إلى شجار يلعب بطولته الريح وهو يُطارد المطر، وتفرُ الشمس عندما يصفع الرعد البرق، ويُلقى جثمان الليل كفنه الأسود، فتُسلّم الطبيعة نفسها مُستسلمة لرغبة الشتاء اللاواعيه في تعرية وإغراق جسدها بمتعة يُجبرها فيها على ارتداء ثوب الحداد الباكي.

كانت رحيل من خلال ثقب صغير موجود في تلك النافذة العتيقة لغرفتها المبعثرة تتأمل سحر الطبيعة وهي في بداية جنونها.. ففتح النافذة كارثة محرّمة، فإذا رآها وائل نهايتها حتما ستكون مؤكدة.

إنها تتأمل من خلال ذلك الثقب عالما غير محصور، متمعّنة تلك الأجواء المتقلبة، تحاور خيالها المتميز بالأماني الحالمة: ليتني كنت أعرف أن أرسم، لكنت اغتنمت هذه الفرصة الساحرة لأرسم ملامح الطبيعة وهي في حضن الشتاء.. خاضعة.. رافعة لراية الاستسلام.. تُحاول أن تفك أسر الدفء من أحضانه التي احتلها الصقيع.. إنها البرودة الدافئة التي لا طالما أحببتها في الشتاء..

سأرسم ملامح الطبيعة حين يُذِلها الشتاء.. مجسدة دموعها السوداء بقلم رصاص.. فلن أحتاج للألوان لجذب الأعين فأنا لست كأي رسام يستنجد بالألوان ليضيء لوحته... أنا سأترك جمال لوحتي هي من تجذب الأنظار إليها.. لن أحتاج للألوان ..فأحيانا كثرة الالوان تجعل اللوحة في فوضى فتُميتُها بدل ان تُحييها .. سأتركها تبحر في الليل وفي النهار.. وسأختار دموع المطر كاسم لها....

مغفل ! وأحمق هو كل رسام فوّت هذا المنظر عليه دون أن يُشبع لوحته البيضاء بجمال هذا المشهد المُميّز!

إيييييه يُعطى القلم للذي لا يملك يدان !!!

بعدما سافرت رحيل رفقة الخيال في عزلة، يُقطع الوصال في لحظة... إنّها الماما ذهبية تنادي!
رحيل .. رحيل .. رحيل .. أين أنت؟

سميناك رحيل و يا ليتك ترحلين لكي نرتاح منك، ومن إهمالك، ومن أغراضك المبعثرة في كل مكان، وكأنك خارج دائرة النساء!

- يا الهي أتت أمي المتذمرة بأسطوانتها المعهودة التي ستحرمني أنا وأعيني من جمال هذا المنظر الربّاني.
- أجل يا أمي ! أنا هنا قرب النافذة ماذا تريدين؟

- ماذا تفعلين يوما كاملا هنا ؟! حالكِ حال المسمار لا يزيد طولا ولا قصرا بل يزيد صدأ كل يوم؟ اذهبي للمطبخ تعلمي لكي طبخه أو اثنتين، فالمرأة لا ينفعها إلا زوجها وبيتها، ولكي يحبكِ زوجك اعتني بمعدته أولا فهي الحب الأول وأنت الثاني!!

ترد رحيل ضاحكة: لا تقلقي يا أمي من هذه الناحية سأتزوّج رجلا سينسى معدته عندما يراني.

- والله يا ابنتي العنوسة أصبحت تلف حولك وأنت لا تعلمين! فكل بنات أخوالك وأعمامك تزوجن وأنجبن إلا أنت! ماذا لو تزوجت ب دودي فهو شاب وسيم ، غني لديه سيارة، وبيت منفصل عن عائلته.... إنك محظوظة أكثر مني لأنك لن تضطري أن تستحملي أوامر حماة تُسيّرها الغيرة وحب التسلّط !

- اتركيني يا أمي من هاذ «الدودي» اسمه فقط يكفي أن يعكس شخصيته، إنه مشبع بالدلال و اللامسؤولية ، إن هذا النوع يتعلق

بالمرأة إذا رفضته أما إذا امتلكها فإنه يستعبدُها و يستبد شموخها حتى يُذِلها، حينها فقط يشبع ارتياحه اللاّرجولي حين يأخذ ما أراد منها باستماتة كرامتها بعدها سيصاب بالملل وسيرميها بلا رحمة ولا شفقة، لأنه يرفض كلمة لا ونعم دائما يحب أن يراها تركع لغروره ولتفاهاته اللاواعية..

- أوّاه ! لابد أن آخذكِ إلى راق جيّد، فلا بد من وجود سبب مقنع يجعلكِ ترفضين كل خاطب، أكيد بك سحر أو عين، أعرف جيدا عماتك إنهن يكرهنني، و يغرن مني وسيفرحن إذا عنّست سيشمتن فيّا، وسيعايرنني بك!

أيرضيك هذا يا ابنتي؟

- ما بكِ يا أمي؟ الزواج مكتوب، وهل تسمّين زواج بناتهن زواج؟ الواحدة فيهن تموت كل ليلة عندما تُرغَم على استنشاق رائحة الخيانة بصمت، فتندب حظّها ألف مرة لأنها تزوجت، تتمنى لو أنها تستطيع أن تتحرر من قيود الرجل الملوّثة بالإهانة و الخيانة والمعاملة السوداء القاتلة.. فأنا لست مثلهن المهم أنهم يقولوا «تزوجت» مهما كان الزواج مقصلتها.. وكأن الزواج هذا أصبح وساما تعلو به المرأة فتصبح تنظر لنفسها الأميرة والباقي جواري...

إن بعض الرجال يا أمي للأسف احتلهم الجهل وحب التسلط، ففي نظرهم أن إشباع رجولتهم الوهمية تقتضي رؤية زوجته تنحني بإذلال في لوحة تُقبّل فيها حذاءه ليستمتع بلحظة تلميع حذائه بمنظِف هو دموع ضعفها.. وليته يُقدَّر، فمراهقته المتأخّرة تجعله أكثر سعادة عندما تكثر عدد النساء حوله فيحس حينها بأنه عنتر زمانه، فيجعلهن الأميرات في حين يجعل زوجته الجارية! فمقولة أنا رجل رخّصت له الحق المزيف في فعل ما يشاء دون أن يستوعب أن المرأة هي إحساس مرهف تعكسه براءتها، أنوثتها، وحياؤها. إنها تفكير يحتاج أن يُروى

بالحوار لا بالجدال، لها الحق أن تتعامل كإنسان لا كحيوان! من حقها أن تتنفس الحرية و الكرامة بعيدا عن الاستبدادية..

- إنها فلسفة عمياء لا تفقه في الواقع شيء يا ابنتي ! المهم إنهن مستورات في بيوت أزواجهن يكفي أن يعشن لأجل أولادهن فالصبر وقوة التحمل من سمات المرأة، لهذا جعلها الله عز وجل تحبل بدل الرجال فلا بد أن يأتي يوم تُصلح فيه الأحوال!..

- تقولين مستورات !؟ على أي سترتتحدثين يا أمي ؟ قولي لي ما نفع سترالذلّ إذا كان يُعري كرامة الروح ويطمس ملامحها !؟؟

لا يا أمي إنه الخوف من عدم وجود دعم وملجأ، إنه الخوف من تحمل مشنقة اسم مطلقة؛ إنه جبن الشجاعة الذي بدل أن يواجه و يتحدّى.. ينحني !؟

فالرجل لا يحب المرأة الضعيفة التي تسجُد لكل قرار يتخذه، فتجيب فوراً بنعم قبل أن تفكر هل هو صائب أم مخطئ؟ للأسف إن مجتمعنا أجهض ثقافة الحوار، وتبادل الاحترام، فالكلّ يحاول أن يفرض رأيه ولو بالقوة دون أن يستمع لرأي الآخر فبدل حجج الإقناع أصبح الصراخ وسيلة للإقناع!

- إيه يا ابنتي ! لا أعلم لِم تهوِيْنَ فلسفة الأشياء؟! فسهل علينا أن نتكلم، بقدر ما هو صعب علينا أن نعيش إحساس ومعنى الكلمة.. فالتحدث عن الألم بعيد كل البعد عن الإحساس بالألم ! «الله غالب وأحد ما لقى كيما يحب»!

- لم نستسلم؟ ونحن نقول الله غالب بدل أن نكون أقوياء بالله، لم نُصِر أن نبقى مغلوبين؟ أنسيت المثل الشعبي الذي دائما كنتِ ترددينه على مسامعي كل يوم: «أسعى يا عبدي وأنا نسعى معاك»، أم

نسيت شعارك؟

- أظن يا ابنتي أن الصحافة أثّرت على أفكارك و أضنني في حوار صحفي عقيم فلن نتفاهم، فجيلنا غير جيلكم، فلا تحاولين أن تصلحِ شيئا بنقر جرس الخطر على حياتكِ أيتها الصحفية المتحمسة زيادة.. خذيها مني نصيحة بما خبرت من هذه الحياة، فالكل راض عن حياته لا يود أن يتغير أو يُغيِر! صراحة يا ابنتي بدأت انزعج من مهنة المشاكل التي تمتهنينها ولاسيما أنا أعرفك حشرية، مغامرة وفضولية ولا نتحدث عن جرأتك فالجرأة والتحدي هما أصعب ميزاتك! لو كنت متزوّجة لما اضطررتِ للعمل يوما كاملا وأنت تطيرين هنا وهناك فيصاب التعب بحد ذاته إلى الشحوب والاضمحلال من التعب الذي يتعبه، وكنتِ وفّرتِ على نفسكِ وعلي المعارك التي تخوضينها كل يوم مع وائل جراء التأخر المستمر والمبيت نادرا خارج المنزل.

- إنها مهنتي يا أمي وتربيتك المَروِية بالمبادئ هي سدٌ مانع ضد الخطأ ليس خوفا منكِ ولا من وائل إنها النفس تتغذى بالمُثل الأعلى تعشق الصفاء، وترفض أي كدر يُلوِث الروح أنا بنت جبال الاوراس يا أمي وبنت رجال.. فشعاري ان أصعب خسارة أن يخسر المرء قيمة نفسه، أما وائل لا يحق له أن يتدخل في حياتي إطلاقا.. عمري ثلاثون سنة أنا واعية وراشدة بما يكفي لكي أُسيّر حياتي كما أشاء، أنت تعلمين جيدا أن صراخه المستمر ما هو إلا وسيلة ليأخذ ما أدخِره ليصرفه على سهراته الثملة.

- «يعطيك الصحة يا بنتي»، برضاي عليك جميلتي فكري بموضوع جارتنا أمال، فابنها وحيد مهندس ناجح إلى جانب أنه إنسان ذو خُلق ودين، حاولي ألا تصدّيه واقبلي خطبته وادرسيه كما تشائين، أعطيه فرصة.

- بالله عليكِ يا أمي دعيني من هذا الموضوع البائس فكلما أتذكر

تعجرف الرجال حين يمتلكون النساء يُصاب عقلي بجنون مضطرب، أشتهي فيه خنق كل الرِّجال الذين لا يعرفون لقيمة المرأة الروحية قيمةً بل اهتمامهم الجسد.. وأنا أبحث عن عاشق الروح لا الجسد.. بعيدا عن الجسد.. بعيدا عن الجسد.

- يا الله ماذا فعلت لترزقني بابنة مجنونة الألفاظ والكلمات والتصرفات، وتُعاني أزمات العزلة والانطواء، فتتركني للوحدة، فلا تمد يد العون، لا لغسل الأواني، ولا حتى لطيّ الثياب؟!

تتمتم رحيل بهمس : الحمد لله ذهبت أُمّي، والحمد لله أنني لم أتزوج وهذا الوحيد لو يعيش وحيدا مثل اسمه موش خير.. سأشعل التلفاز لعله يُنسيني حُمق الألسنة، حين ينحرِفُ النطق، وتضمحل الجمل وتموت المعاني.

ماستر

رحيل مولعة بسماع الأخبار وخاصة عندما تَكَلَم أخيرا الصمت عند العرب و أُستخدم اللسان في المطالبة بالحرية، إنها الكلمة حين تقاوِم القوة دون أن تخشى السلطة، فتتحدى حمق الرصاص بجسد عار! إنها تنصت بإمعان و تحاكي خيالها في وطنية متقدة :

عندما يصبح الكذب، الرشوة ، الغدر، الظلم، السرقة، النفاق، الخيانة والاستبداد لغة للتعامل
تصبح الحياة مزبلة بلا كنّاس..
عندما تُحجز المبادئ والأخلاق والضمير في آخر ركن سجّانه يعاني فقدان الإحساس
فتتكلم أو لا تتكلم؟
تصمت!
تنادي بأعلى صوت..
لا أحد يسمع!
صوت الحق غير مسموع
أنت موجوع؟
تحيا أو تموت ؟
لا يهم !
شبعت أم جعت؟
وبعد !
جُبن وطأطأة رأس
حُمق ومجاملات
قُبَل تُزيَّن بها القَدَم
لَهْثٌ وراء الكراسي
و مَكْيَجَة الماضي بتزوير الحقائق
فخذ مكيالا من جنس آدم

تجد مالا حراما مدعما بالمصالح
لسان على الميزان ثقيل
أُغمي عليه عندما سمع كم يزِن؟!
فالباطل تعإلى درجات والسرقة تعشق أن تزني

تسرح رحيل ثانية في مشاهد الدماء وترجع من جديد تحاكي الخيال الذي يعشقها بصمت:

شهيد وراء شهيد
ومُتعة مصاصي الدماء شرب الدماء
حُفاةَ المبادئ
عُراة الوطنية، العزة والكبرياء
يُقدِّسون المال بدل القرآن
ويَعبدون الكراسي بدل الإله
فيبيعون شرف الوطن في كفن الرجعية
ويغتصبون الحرية في أحضان الوطنية
فحلم جامعي أو جامعية
يموت أمام واسطة أورشوة معطية
فتُعْدَم الإطارات والكفاءات المهنية
ويُمزَّق الدبلوم والشهادات الجامعية
فيُزفّ الشباب إلى الحاجة، للفقر، للجوع، وللبطالة
وحلم تكوين أسرة والزواج بعروسة جميلة
أصبحت متهمة بالعنوسة لتعيش حياة تعيسة
في مجتمع ينظرلها بنظرة شفقة مميتة
لان فكرة الارتباط أصبحت مستحيلة
فيجرون إلى سجن الانتحار
بحجة الضياع
فتصبح الحلول محصورة في الحَرقة والانحراف والإدمان

والثمالة للنسيان
فما بال مصاصي الدماء؟
يُصرّون على افتراس براءة الصغاروعي الكبار
ما بالهم يختالون بالسيادة مع وقاحة ابتسامة عريضة؟!
ونعالهم عالقة في جثث شعوبهم المضنية!!
ظنوا أن الحياة ستعاشر الخلود!
حمقى ! فلا جلجامش دام ولا شمشون!
يثور الشعب عندما تثور الحياة على الموت
رافضة الانحناء بعزة الشموخ
تثور الكرامة حين يُغمس أنفها في بركة الإهانة و التّهميش
وتهتز الشجاعة عندما يصفعها الذل الأسير
لمّا يتمادى القوي باستعباد الضعيف
ويُصرّ على نشر صور الحزن، و الموت والبكاء الأخرس
فيحرق قلوبا برصاص الخوف والفقدان الأبكم
لِم تُصِر الكراسي أن ترسم نهايتها في مزبلة لتاريخها الأسود؟!
عندما يصبح الهدف وأحد لابد أن يحقق
فتصبح خطورة العراقيل لا تهم
مهما حاولت أن تغازل أو تمنع
فلا ظلم بعدها ولا كلمة سوف تنفع
فمرحبا بالموت إذا كان للنفس أشرف.

تُحاكي رحيل نفسها مستاءة : يا لله لا تزال ذكرى قافلة الحرية تدغدغ ذاكرتي التي يغزوها الخيال ويجول فيه مختالا حرا بدون رخصة مني للسياحة!

يردّ الخيال مبتسما باستحياء: لا تَنْسَي أننا وأحد تجمعنا الروح والكلمة!

إنها لا تنتبه لكلامه تسبح في أحلامها متحسّرة: لا زلت أندب حظّي لأنني لم أستطع أن أكون من بين الذين كانوا في قافلة الحريّة لتقديم الإعانات للعائلات الفلسطينية بالأقصى.. أنا لست محظوظة لا طالما حلمت أن تطأ قدماي أرض فلسطين الحبيبة ولو اعتقلت بعدها لألف سنة.. آه على فلسطين..

كل ذلك بسبب مدير الجريدة.. ذلك الأحمق المتخفي.. ظن أن الرجل هو الوحيد الذي يستطيع أن يتحمل الصعوبات وهو القادر على مواجهة المواقف.. رفض طلبي من دون حتى أن يسمح لي برؤيته.. مدير لا يزال يفرق بين الرجل والمرأة في وقت توفيت فيه العنصرية وأصبح فيه الموت يرخص لأجل الديمقراطية، مدير غبي جعل حلمي ينتحر.. ألا يعلم أن المرأة تكاد تطمس ملامح الرجال في كل مهام؟

تتثاوب رحيل وهي تنظر إلى الساعة فوجدتها الثانية عشرة ليلا يسألها خيالها: على ما يبدو ستنامين؟ تجاوبه بعيون استولى عليها النعاس: سهرت بما فيه الكفاية يجب أن أرتاح لعل تعبي الداخلي سيرتوي راحة.. فغدا ستأتي آية باكرا للتسوّق..

يمضي الليل جولته حول رحيل التي تتقلب يمينا وشمالا إلى أن يضطر لنزع نقابه لينكشف وجه الشمس.. ويصحبه صوت الماما ذهبية مدويا: رحيل يا كسولة انهضي آية في الخارج تنتظرك

لِم أنت نائمة على الأرض؟؟ فتاة مجنونة !!

. صباح الخير يا أمي.. تعالي لأقبلكِ يا أحلى ماما في العالم... سأكون جاهزة خلال دقيقتين..

تبحث رحيل في خزانتها التي تستر فوضى الثياب محدثة نفسها: أين تنورتي البيضاء الصوفية يبدو أن اليوم مشمس و دافئ لا يحتاج لمعطف.. إنه يومي، علي أن أكون في كامل أناقتي.. فاليوم اجتماع هام

ولقائي الأول مع المدير الغامض، إلى جانب أني قد أجد رامي في طريقي، ستخبرني عيناه من بعيد أنني أعجبته ولكنني جميلة، أخبرني بذلك أم لم يخبرني؟ فإذا نال استحسان العينان فهذا لا يعني أنه نال استحسان القلب..

- رحيل.. رحيل.. رحيل

- لحظة أنا آتية

.صباح الخير آية سامحيني لقد أطلت عليك

- «ماعليش راني والفت»، ما بالكي اليوم فرحانة ومتألقة ؟

- لا أُخفي عليك حلمت حلما أنعش روح الوطنية عندي، أحس وكأنني جميلة بوحيرد أو لالة فاطمة نسومر!

تضحك آية متسائلة: هاتي ما عندك .. ماذا حلمتِ؟

لكن اسمعيني من دون مقاطعة لكي أركّز جيدا في التفاصيل..

تفضلي يا جميلة بوحيرد. .

في غرفة مظلمة يكسوها الخوف والأنين-

ورائحة الموت تحاصرني من كل جهة بحنين

وعفن العذاب يود التهامي من بعيد

على طاولة صهيونية إسرائيلية يهودية كنت رهنا للاعتقال الأليم

ولعله السجن الأبدي لكوني وطنية في قافلة الحرية

وتهمتي أن جذوري جزائرية

أصالتي بربرية وبعدها عربية

و أكبر تهمي أنني مسلمة لم أرضى إلا فلسطين حرة مستقلة طليقا كيف لا ؟ وجزائري فلسطينَ..

فجأة فتح الباب بطريقة عنيفة ودخل ثلاثة محققون ومحققة، بدا على وجوههم الفرحة لأنني غنيمة وفرصة للقضاء على إرهابية..

نور يصوب على عيناي لتوتيري.. و اقتربوا مني لتخويفي.. فوقفت وقفة زبانة على مقصلة الشهادة وقلت: مرحبا بالعذاب إذا كان لأجل فلسطين الأبية فدفعني وقال: من أين أنت أيتها الإرهابية؟

قلت: بل أنا وطنية من بلد المليون ونصف مليون شهيدا
- قال ضاحكا مستفزا وطنيتي: شهيدا أم لقيطا؟؟
- قلت: والله لا أعرف مرادفا للقيط سوى إسرائيلا

فصفعني وشد شعري الحريرا، فشعرت بقوة تصبح فيه الجبال بحارا وكأنه الجهاد اكتسى من ثوب الألفاظ والكلمات سلاحا، وفي دوامة أفكاري دفعته عني تلك المحققة الصهيونية ذات الملامح الشيطانية و بغيرة يهودية سألتني: أتودين لوجهك الجميلَ التشويهَ؟

قلت: والله ستكون بألف عملية تجميلا وما أجمله تشويها لأنه بصمة لحبي فلسطينا

- فقالت :أأنت من الجزائر؟

قلت: من بلد المليون ونصف المليون شهيدا .

- فقالت بلهفة تجاري لهف الكلاب على العظام الجديدة : بلد الإرهاب الذي يحتاج منا خدمة الاجتياح السريعَ

- قلت: اسألي فرنسا عن جهاد الجزائر، عن شهامة واستبسال الأبطال الكبارَ.. وكأنهم أسود جائعة للحرية حين الانقضاضَ.. بل اسألها عن جميلة بوحيرد، عن العربي بن مهيدي، ومحمد بن بولعيدا

لندمت على التفكيريوم بأن تكون إسرائيل على الجزائردخيلا
فنحن شعب لا يهمه موت الجسد فهو خلق للجهاد العنيدا
أما الروح فهي تحيى لتحرير فلسطينَ

فاقترب مني محقق أخر طارحا سؤاله بتعجب وعصبية: من أين لكي هذه الوطنية ؟

قلت : اقرأ اللهب المقدس لمفدي زكريا
قال :أهذا إرهابي جديدا؟؟ أمات أم لا يزال حيا؟
قلت : لو كان حيا لما تشجعت إسرائيلَ
قال : تملكين شجاعة إسرائيلية؟
قلت: إسرائيل كذبة دونت في غرفة منسية

فسألني من جديد مع صفعة قوية: من أين لكي هذه الشجاعة و الوطنية؟
قلت: كيف أخبركم عن الشجاعة وانتم جُبناء .. ولا عن الوطنية فانتم لُقطاء

فأرهقوا جسدي ضربا.. وصرخوا في وجهي عجبا: إرهابية عنيدة على قائدنا استجوابكِ فأنت إرهابية خطيرة
فجاءني قائدهم بعصاه الكهربائية يخاطبني مستفزا ساخرا: أنتم العرب تعيشون دوما أحلام اليقظة الوهمية الأسيرة
-فقلت: وأنتم دائما تتناسون نهاية الأحلام التي ستنتهي بكوابيس مميتة
قال: لم تكرهون إسرائيل ؟؟
قلت : ولم تستمتعون بشرب الدماء؟.
قال : إنه مهدى من العرب وكأسنا فلسطينا
قلت : ثمل السكوت من صمت العرب
أيا يهود ستدفع الثمن
فالظلم لا يعرف دينا ولا وطن
والزمان مهما طال
الرب يوما سينتقم
وبضربة موجعة حارقة جسدي الجميل
قال: أي عذاب تختارين؟

قلت : عذاب الحرية أريد ؟

قال: تخلصي من كل هذا العذاب أيتها الأسيرة.. واتخذي إسرائيل وطنا شجاعا قويا.. ولكن بشرط إليك هذه الاتفاقية؟

قال: كوني لنا حليفة.. وكوني كغيرك لنا خليلة..

فلم أتمالك نفسي وضحكت ضحكة يتيمة.. فما أوقحه من اتفاق حقيرا ؟!

فقلت: لو ولدت في غير الجزائر بلادا
لاخترت الموت عن الحياة بديلا
فلن ارضي بغير الجزائر وطنا أبيا
لن أكون فيه إلا حرا غير ذليلا
وموسى لم يكن كفرعون لربه كفورا
فجزائريتي الفلسطينية خلقت لان تكون حرة لا عبيدة..
فأنا كالنخلة العلية
والخيانة لا تليق بوطنية
فلكمني بقوة جاعلا دمائي تفوح بريح الأقحوان الندية
و بصرخة مدوية غبية
طالب بإطفاء الأنوار العتمة ليجلد حالتي النفسية
وجعل المياه القذرة تنصب على جسدي الطاهر الذي هزه الخوف والتنهيدة الطويلة
لكن سرعان ما أعدمت خوفي بمقصلة حبي لجزائري فلسطين
وباستجواب سريع
وصوت تتقزز له أذني لانتهاكه اللغة العربية بلهجة عبرية دخيلة
قال : أيتها الإرهابية
قلت : بل أنا وطنية
قال : ما اسمك ؟
قلت: جزائرية

قال : ما اسم حركتكم ؟ وما سلاحك؟
قلت : الجهاد اسمنا و سلاحي قلم وحجارة ضد مدفعية
قال : من محرضك ؟
قلت : ربي وديني قال : ومن ربك وما دينك ؟
قلت : ربي هو رب الجميع
مسلمة وديني خير الديانات أجمعين
قال: أيتها الإرهابية لا يوجد كاليهودية دينا أبديا
قلت :
(قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد)
قال: اصمتي .
قلت : (ولا أنا عابد ما عبدتم) قال: اصمتي.
قلت : (ولا أنتم عابدون ما أعبد)
قال: اصمتي قلت (لكم دينكم ولي ديني).
قال :أ أنت شاعرة أم أديبة ؟
قلت :إنه نور القران نوره نور أبديا
ضحك علي، فأشفقت عليه بابتسامة قاتلة سُمِيّة ومع هلوسات يهودية سألني: لم تحبين فلسطين؟
قلت : لأن فلسطين جزائري
قال : لم تتحملين كل هذا العذاب؟
قلت : أشتاق للراحة الأبدية
قال : لا راحة لإرهابية
قلت : بل أنا وطنية
وبحماقة استفزازية خاطبني : هيا اعترفي أأنت وطنية إرهابية؟
قلت: إذا كان الإرهاب مرادفا لكلمة وطنية فأنا إرهابية..أنا إرهابية..أجل أنا إرهابية..

صفق الجميع لانتصار قائدهم الجبان باعترافي الشجاع
وبكل احتقار قال: أيتها الوطنية أي موتة تختارين؟
وبكل كبرياء جاوبته: عليكم بالعزاء لموت فرحتكم المؤقتة
فلن تتمتعوا بتعذيب جسدي المطهرَ
إنه قُتل منذ زمن بعيد
لما استسرقتم الحرية من شعب فلسطين العنيد
وروحي ستحيا دوما وسألعنكم في الجنان كل حين
قال: سنجتاح الجنة لنعتقلك من جديد
قلت: إنكم لمن الخاسرين
وبئس مثوى الكافرين
قال: اقتلوها فإنها وباء خبيث
فقلت : أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمد رسول الله مع طلقات رصاص خائفة تنحني لي إكبارا
بعد كل اختراقا

فسقطت من سريري الخشب العاليا
لأستفيق من نومي
على فرحة موتي
كالبطل الشهيدا
فما أحلاه حلم لاعتقال شهامة وطنيتي الجزائرية الفلسطينية

تندهش آية متعجبة قائلة: يا سلام تعيشين المغامرة في الاحلام وفي اليقظة ..
رحيل: ماذا تقصدين؟
- انظري من الذي هناك في آخر الشارع؟ إنه رامي ينتظر قدومك ليقول لكي: صباح الخير بعينيه الجميلتين.. فما بالكِ عزيزتي؟ يأتيك للتحدّث ترفضين، يبتسم لكي تنزعجين فعلا صدقت طاطا ذهبية..

أضحكتني فعلا.. لكن قولي لي متى كانت أمي منبع كلماتك.. من الآن لا أودّ سماع شكواكِ منها عندما تنتقد لباسكِ يا عزيزتي، وأصلا ما أدراكِ أنت بالرومانسية؟ أجمل اللغات لغة العيون..

فأنا أهوى جمال الحب البريء وهو يرتدي ثوبه الأبيض المحتشم...

انظري رحيل إنه يبتسم لك من بعيد فعيناه أرسلت لكي كل الحب! فيا ترى ماذا أخبرته عيناكِ؟

تنظر إليها رحيل ممازحة لتجيبها: «أحم، أحم» اسمعي يا عزيزتي لقد قالت عيني لعيناه:

إذا اختارتك الروح موطنا لراحة أو هوى؟ فكن الوطن!
فخوفي ليس من مرور الزمن
وإنما خوفي من حضن يطردني من السكن
وأي سكن؟؟؟
سكن أتنفس فيه نسيمك المعطر
وارتشف حبك كل صباح كالسكر
وانتظر منك تحقيق حلمي المقدر
فلا تتعالي عن حبي
ولا تتمادى في الطلب
فكرامتي لا تنحني لذل الحب
فلا تحسبن الحب حجة لامتلاك الممنوع
فأنا امرأة تخاف ثقل الذنوب
تحاكي طيبتها براءة تعاف عُري العيوب
فلا تتغنى باستبداد براءة طفولتي بحبك المنشود
لتعتقلها إلى قصر حرمانه أقسى من ألم القبور
فأنا سيدي لست خمرا يهوى حضن الكؤوس
فعزة نفسي أغلى من حب مستبد مجنون

يستغل جمال الكلمات ككحل العيون
ليرتوي حبه بانتعاش عطر الدموع
فلا تحسبن سيدي صمتي ضعفا ؟!! ليس ضعفا
وإنما الصمت قوة حين يغتال الكلام

«أووه» أراكي لست بالهينة، كالعادة يا رحيل بل دوما تفاجئينني بردّك
وماذا كنت تضنين يا عزيزتي؟ يا إلهي إنه متقدم نحونا خبئيني.. خبئيني..
يا سلام على الشجاعة..

يأتي رامي مبتسما مختبرا جرأته.. فالوقوف أمام رحيل يجعل التوتر يقتحم الوجدان فكبرياؤها وجديتها وردت فعلها اللاّمتوقعة، تجعله يحسب ألف حساب بمجرد التحدث إليها..
باستحياء يلقي السلام، لكن عيناه ترفض الانحناء
«صباح الخير»
ترد آية بأفضل سلام: وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته
- صديقتكِ لا ترد يا آية أتضنين سيأتي يوم يُعلن فيه خبر الإفراج عن لسانها لعلها تتنازل للتكلم معي؟
. ومتى كان لساني معتقل أو مسجون فالعبرة ليست بالكلام فالتحكم باللسان حكمة لمن يفهم..
الحمد لله تكلمت.. يا الله صوتها أحلى من تغريد العصافير!
تستحي رحيل وتطلب من آية الإسراع بالذهاب كما تطلب من رامي عدم التكلم معها ثانية رغم إلحاحه المصر!
تستعجب آية لتصرفها فتسألها فورا بعد رحيله بفضول: لِم طردته؟ أم أن احمرارك أخبره بشيء ما ؟
- ترد ممازحة أيضا : أجل يا عزيزتي فعندما تتلعثم لغة العيون

يصبح للجسد لغة فاحمراري رسالة تقول له:

لا تقل كلمتك الآن فالصمت أحيانا أبلغ من كلام

واترك عيناك الغامضتين تسترق من الصمت لغة للعيون

لعل عيوني الشقية تتحرر من كل القيود فتستبيح كل الكلام لتقول مالا يقال

فالحب المجنون سيدي لا يعترف لا بالقيود ولا بالحدود

إنها كلماتك المغامرة التي تحيا بالتحدي

فلا تلمني سيدي لارتباكي المفضوح

ولا لخوفي من لؤم سم العيون

لا تلمني لرهبتي ولا لعنادي، فأنا امرأة يستهويها المرغوب ويرعبها الممنوع

لا تلمني فأنا امرأة لا يروقها عالم الظلام، فراحتي في مملكة النور

ولا تلمني لاحمراري فالخجل سر الجمال المكنون

ولا عن رجفتي فأنا لم أتعود عناق الأيدي المجنون

فكف عن المراوغة فسلاحي براءة طفل صغير

تتساءل آية بلهفة متسرعة: متى أصبحت شاعرة غرام يا رحيل؟ ليس من عادتك الغزل!

- أن تكون شاعر غرام هذا لا يعني أن تكون مُغرم، إنها لغة الخيال فالإلهام يولد عندما تحمل الأحاسيس شعورا مختلفا يطالب بأن يُذاع، فما يكون أمامي سوى أن أطلق سراح كلماتي بالإفراج.

- لا أدري كم يزن وكم يبلغ طول لسانك حتى تجدين لكل سؤال جواب متميز؟!

- العبرة في العقل لا في اللسان.. أو تدرين أنني لم أذهب للعمل لأجل سواد عيونك يا محتالة؟

- وتدرين من هناك؟ لا أكاد أصدق؟!إنها مفاجأة فعلا!!

- من ؟؟

- أنظري من يجلس هناك في حديقة ذكرياتنا على يمينك هناك تحت شجرة الوفاء مكانكِ المفضل ؟

- لا، لا أصدق عيناي، إنه عبد الرحمن، سأذهب إليه في قلبي حرب للاشتياق وللعتب؟ لعلي أعرف للبعد سبب؟؟ لعلي أعرف حجة النسيان..

رغم أن المسافة قريبة إلا أن رحيل ذهبت مسرعة راكضة تاركة آية تصرخ رحيل توقفي، انتظريني يا ربي، كيف أُجاري تقلُّبات هذه المجنونة!؟

بينما كان عبد الرحمن سارحا مطأطئا رأسه تقتحمه رحيل فجأة باللّوم والعتاب: عبد الرحمن! متى عدت؟ وكيف لم تتصل؟!! لم رجعت؟ وكيف رجعت؟!!

- رحيل رحيل رحيل...أجل إنك رحيل... ! ما أحلاها صدفة ! رُبّ صدفة خير من ألف ميعاد ،وكأنك تحررت من سجن خيالي وأحلامي لتتربعين على عرش يقظتي وواقعي ! إنه القدر من جديد يجمعنا.. جئت البارحة وهذا المكان الأول الذي أزوره..

وانظري ماذا أقرأ؟

- مستحيل! ألا تزال هذه الخاطرة معك!

- اسمعي :

من بعيد أزفك تحياتي
فلا تسألني عن سبب جمالها اليوم
ولا عن سبب حضورها عرس الحلم
فقد ألغيت مواعيد كتاباتي الآن
وتركت المجال لتمرد صمتي وكتماني قبل فوات الأوان
ليفُض معاهدة السكوت بالكلام

ليطلق سراح كل الأسرار
فينشر غيض كل المعاني والألفاظ
على مرأى عيون فنان
فهل جن القدر بإضافة حرف جديد إلى أوراقي المسطرة؟
ليحرجني كالعادة باتهاماته المكررة
فيلومني لابتعادي وتجاهلي ويتهم رسامي بانتقامه من ملامح وجهي بسواد قلم رصاص وأن نهايتي سرعان ما تكون بقتلي مع جرة ممحاة
فدعوني لست أهوى ثرثرة القدر وهو يقبل تجاعيد الحياة؟
وإنما أهوى حديث صمت الكلمات
وأهيم في جمال التحدي وهو يقاوم جمود اليدان بانتحار الواقع على ورقة بيضاء
فلست أخون عالم الشعر والكتابة بخيالي
ولست أملك تبريرات لغيرة كلماتي.. فلا بد أن تتحلى بحب الثقة بإعجابي
ليس بعدا و خيانة وإنما هو الشوق لتزاوج الصدق والوفا
عندما يهجره الاستغلال والكذب ويحتضنه دفئ الصفا
من بعيد أود أن أقول لك أن الروح اختارت اليدان مسكنا وأملا فتحدى الأمل وكن الحقيقة
من بعيد فهمت حزن عيناك فتحدى ملل الأسى بالفرحة العميقة
من بعيد أحسست بالاهتمام حين تخاذل الجسد عن حملي فكنت الأخ الحنون لصديقة غريبة
ومن قريب أهديك شكرا فيكفيني إني صادفت أخيرا الشفافية في إنسان
فاحترمت فيك الحس المرهف للإنسان

وتعلمت منك معنى الرجولة في بضع أيام
فالرجولة ليست باستعراض العضلات
وإنما هي فكر ورقي وإحساس وتسيير جيد للمواقف الخرساء
فأنت رجل يتسلح بذاته لينقض كبرياءه من الرضوخ
في زمن بيعت فيه المبادئ بأبخس الأثمان
فيوم أو شهر أو سنة لا يهم
فالصداقة لا تقاس بالزمن
فقد اقتنعت براءتي أن تنصب خيام راحتها في طيبتك
ففي النهاية أدركت أن الوفاء يحمل عنوانك.. غريب.. فالرجل الذي لم يطل على نافذة أوراقي إلا بهجاء
أصبح له رصيد مدح في بنك أفكاري
وأصبح له خاطرة بعنوان عبد الرحمن
فإذا قيدنا يوما الفراق
فلا تترك الوداع يغتالني بجرح
فلست أنا التي أعدم صداقتي بحجة أفكاري
فلا طالما طعنت في الظهر بسيف الأصدقاء
الذي أهانهم بعدي بطعنة الاحتقار
فأصبح الذل والحرمان من العفة بيتهم للإيواء
ولكن إذا استطاع الرحيل يوما أخذ ذكراك ستبقى أنت الكلمة
وإذا تلاشت صورتي عبر الأزمان.. فأبقيني أنا القلم
لأعيد رسم لوحتي الباكية في زهرة الأقحوان
فلا تنسى إن تعلقها في أحلي غرفة على جدار الذكريات
فشكرا يا مشجعي رسم الكلمات
فالصداقة أنبل علاقة
إذا قدسها الوفاء و الاحترام
فدعني أقبل وجنتا الإخلاص

ودعني أُسَمي علاقتنا بالصلاة

- لم لا تزال معك؟ ما بال عينيك تدمع؟ جاوبني عبد الرحمن؟!!

- لو تعلمين ما حدث ؟

- لن أسالك ما حدث؟ فلقد بقيتُ على العهد فنسيت العهد ونسيتني، وعُدت فما تذكرتني؟ وأنت الذي كنت تتهمُني بالنسيان إذا فرقنا الزمان، فوضعتني في زنزانة التُهم، وكنت في نظرِك المتهمة، وفي النهاية كنت أنت الجاني.

- توقفي رحيل فصعب علينا أن نكون قضاة على جاني من دون محامي!

- أحم.. أحم !! نحن هنا يا جماعة ! قبل شجاركما كالعادة ألا توجد كلمة اشتقت إليك لآية أم أنني غير مرئية؟

- آسفة يا مشاكسة «والله ليكم وحشة..» الأيام الآتية سنسترجع ما التهمه النسيان ..ولكن أ تسمحين لنا الآن يا عزيزتي أن نُسوِي بعض الأمور على انفراد مع هذه المُعاتِبة؟

- يا الله كنت أعلم أنني سأكون ورقة سترميها الرياح في أي وقت فمزاج اللقاء والتواعد مع رحيل متقلب كالخريف، ولكن يجب أن تعلمي غدا ستذهبين معي حتى ولو فصلوك من العمل.. إلى اللقاء..

رحلت آية تاركة وراءها صمتا رهيبا يغازله تساؤلات كثيرة ولكن عبد الرحمن قطع السكوت الذي كان ثرثارا فضوليا يحاول معرفة سبب قطع وِصال وُصِل بوعد وعهد ضد النسيان بقوله: تعالي رحيل لا تبقي واقفة اجلسي هنا بجانبي..

تجلس رحيل متثاقلة تنظر إليه نظرة حزينة كانت كافية بأن تطلق سراح لآلئ العينان، لتقبّلُ وجنتيها أمام مرأى عبد الرحمن دون استحياء ولكنها سمحت للسان بالكلام: فرحتي وحزني يتحمّلهما هذا المكان لحد الآن.. أتتذكّر هذا المكان..؟ هذا المكان أرّخ كل ذكريات

الشباب و المراهقة.. أرّخ الطموح وهو يُقبّل الأمل.. أرّخ الصداقة وهي تحتضن الأخوة.. أرّخ دموع الضعف و الانكسار.. أرّخ الخيبة اللاّواعية وهي تأبى الابتعاد عن عناق الأحزان.. أرّخ التفاؤل وهو يرسم ملامح النجاح.. أرّخ وأرّخ و أرّخ...

هنا تحت هذه الشجرة كنا نهرب من الجميع لنسمح للإلهام أن يولد في أحضان الطبيعة، فلا طالما كان مخاض الكتابة يأتينا هنا.. هنا.. رغم الهمس الأسود الذي كان يلاحقنا.. لكننا كُنا لا نأبه.. لأننا نعرف من نحن؟

هُنا كنا نكتب ، وهنا كُنا نؤ..

قبل أن تكمل رحيل أغنية العتاب يقاطعها عبد الرحمن حزينا بسؤال ينبعث منه الأنين: لمن أعطيت هذه الرسالة قبل أن أسافر إلى لندن؟

- أتمزح! لحظة الوداع في المطار نسيت إعطاءك الرسالة فأعطيتها لدلال عندما كانت تحدثني عن زواجكما المفاجئ .. لحدّ الآن لم نعرف لِم أخفيت علينا الأمر؟ .. هل هي هنا؟

- طلقت دلال..

- ماذا؟ ماذا تقول؟! لطالما كنتما ثنائي رائع، كانت الغيرة بحد ذاتها تغار من التوافق الذي يلبسكما! لِم الانفصال؟

- أتعلمين أنني لم أقرأ رسالاتك إلا بعد ستة سنوات؟!

- بعد ستة سنوات! لِم؟!

- لقد احتفظت بها دلال و أخفتها عني طيلة هذا الوقت.

- دلال فعلت هذا! هي أَدرى الناس بعلاقة الصداقة التي لا طالما جمعتنا ولكن لا تجعل هذا السبب يُخسركما حبّكما!

- ليته كان السبب الوحيد فحسب..

- ماذا بعد؟! ما بك عبد الرحمن؟ لِم هذا الانكسار؟ لِم رائحة

الحزن عندك قوية تدغدغ عيناي؟! لِم عيناك تحتلهما الدموع؟ بل لم هذا الشحوب لم هذا التعب؟!

لِم أنت لست أنت؟!

- دلال خانتني.. خانتني يا رحيل.. وخانتني مع من؟ مع صديقي يحيي..

- ماذا؟؟!!.. لا أصدق؟؟!.. إنني لا استوعب ما قلت؟ يحيى الذي كان في مجموعتنا.. أتذكّر أنكم سافرتم سوية ،كيف فعل هذا بك؟ وكيف تجرأت دلال عل فعل هذا.. هي التي كانت تموت من الفرح عندما تتذكرها بكلمة وكانت تموت حرقة إذا تكلمت مع سواها !!لا أكاد أصدق ما تقول !.. لولا أنك عبد الرحمن لما صدقت!..

هل واجهتهما ؟!!

- ذلك السافل اختفى عندما اكتشف أنني عرفت بالحقيقة، بحثت عليه فقط لكي يجيبني على سؤال واحد: لِم لِم لِم؟؟

- اهدأ عبد الرحمن..

- أكاد أُجن فحجّة الخيانة كانت أقسى من الخيانة في حدّ ذاتها.. هي التي كانت أدرى الناس بعلاقتنا اتهمتنا بالخيانة وجعلت الرسائل التي كنا نتبادلها في الماضي إدانة على الخيانة..

- كيف تفعل هذا ؟ كيف تعدم عفّتي بهذا الظن؟!! كيف تشوه ملامح براءتي بكلمة؟!! أنا التي بذلت كل جهدي لأجلها، كي أقربها لقلبك فطعنت قلبي وقلبك ولَم تسأل؟!! لا أكاد أصدق؟؟

كيف بإمكانك الآن أن تنسى كل هذا والنسيان أصبح بخيلا هذه الأيام؟!تبدو مُنصدما و لا تزال مُتأثّرا؟

- إنها لا تتوقف على الاتصال بي !

- ماذا تريد؟!

- قالت سامحني يا رحيل

قالت سامحني بعدما تركتني لا أصدق أنني عشت أكذوبة في

تمثيلية

لا أصدق أنها هي
ولا أصدق أنني سكنت يوما في حضنها
استرق الأمل في بسمة من شفاهها وانتقي الحس المرهف من صفا حنانها
كيف اليوم أصبحت ليست هي !
أبرد من صقيع الجليد
و أقسى من صلابة الحجر المتين
شدت الرحال لعالم الضياع
وارتدت ثوب الخداع
فلم أصدق أنها هي
لم أظنها هي من لؤم عينيها
من طريقة فكرها الملوث
وحديثها المجوف
كان الخوف يعتريها من ليل يحتضنها
كيف اليوم أصبح خليلا لها
كان الحياء يخشى من حياءها
كيف أصبح الآن يخجل من لقائها
لا أصدق أنها هي
ما أرخص الحياة في ثوب مدنس
ما أرحم الموت لإنسان مزيف
تظن أن انتقاء الألفاظ سيجعل الصفح قريبا منها
إنها عني غريبة
فمن السخف أن نتجمل وما بداخلنا مكدر
لم أعهدها تعرف للكذب ألوان
كيف أصبحت اليوم لا تكفيها من ألوانه الألوان؟!

كانت البراءة تتغذى من لطفها
كيف أصبحت اليوم تعاف قربها؟
لتصبح الوقاحة المكان الأفضل لجوارها!
أهذه هي أم أنني كنت مغفلا؟؟
لم كفن الوفاء تهديني
كيف بعد كل هذا تأتيني
وهي تخدش حياء الجرأة عنوة لتقول سامحني
كيف استطاعت أن ترتدي الثقة ثوبا يزينه الاحتيال؟
تثير حسرتي باستغباء ذكائي البريء بدموع عارية الصدق والاطمئنان
بعد ماذا تنتعل حذاء الندامة؟!
بلغة فقدت عذرية العفة و الطهارة
كيف تُلبِس يداها قفاز الحرباء
وتستعير من التماسيح دموعا
ظننتها من لوعة الحنين و الاشتياق
فلست أبكي على جرحها فهي الآن الغريبة
فيكفيني أنني معها كنت الوفيا
تظن دموعي ضعفا
حمقاء ..حمقاء ..حمقاء
ذكاؤها غباء
وأفكارها عرجاء
نسيت أن النار لا تحرق إلا من سخر من لهيبها
فخسارتي لها فوز لنفس لم تتعلم بعد درس الأنانية
وخسارتها لي كقسنطينة من دون جسورها المعلقة
أو كباتنة من دون جبال الأوراس الغالية
ضنت أن الجنة من بعدي

وإنها ستكون أكبر همي
ضنت أنني سأنحني مثلها لتجرني بكذبة هشة بالية
باسم الحجج اليتيمة اللاّواعية
فلست أنا
الذي أدوس على أخلاقيات الحياة مِن أجل دنيا فانية
أنا الذي أهديتها وفائي حين خانها الجميع
فغدرت بي
و فتحت لها كل أبوابي حين تخلى عنها كل قريب وبعيد
فكانت سجاني
سلمتها مفاتيح أسراري و دفاتري حين لم يستأمنها أي أحد
فخانت ألفاظي وكلماتي واغتصبت كل أسراري وخانتني
أنا التي أهديتها جوعي لتشبع
فسممتني
ودفئتها بثوبي وما همني بردي
فاختارت لي برد الموت
أنا الذي جعلت التحدي سلاحا لأدافع عنها
فكانت عدوا فحاربتني
أعطيتها كل العطاء
فتركت الروح بلا إيواء
فكيف عادت اليوم لتقول سامحني
من جب حرمته الارتواء
للأسف قد مضى زمن صكوك الغفران
سأدع الانفصال يلملم خطاياها النادمة
فقد سئمت كذب الأدمع
فكلمة سماح أشرف و أغلى لتقال لزوجة خائنة
لقد انتحرت أشواقي الباكية

وانتحرت معها طيبتي اللاواعية
كم أود صفع حمق براءتي الساذجة
أو أعانق دمعتي الغبية
بل أنعي رفات المحبة القاتلة
لعلي أواري حقيقتها البالية
في أكاذيب حالمة
تسألني عن حمق الأمس
والغد التهم غثيان الألم
وتجمل القلب بكحل النسيان المؤقت
فقد أكّدت على موعد سفر النسيان لذكراها الميتة
رغم أن الذكريات لا تحتاج حجوزات للسفر
لعلي أنسى غزل الأنين حين الوجع
لعلي أنسى كل الكلام المنمق في قناع الحب المزيف
إن رقمها، صوتها يذكرني بالذكرى السوداء
والذكرى أجهضها النسيان حين التذكر
فقلبي أصبح لا يتسع إلا لعشق القلم
فالسماح لا يُطلب إلا من بياض صفحاتي وحروفي السجينة
التي لا بد من مجيء يوم اشتري لهما فيه ثوب الحرية
و أترجى عذر حروف أرغمتها لتلملم نفسها في خاطرة منسية
لأقول سامحيني لأوراقي لأني لطخت بياضها بسواد ذكرى خائنة

- إنني أتنفس ألمك .. وكأنني أنا أنت.. فالصّدمات التي نتلقاها يا عبد الرحمن على ما هي جارحة وقاسية تجعل ما بداخلنا يتوسّل الفرح والهناء.. إلا أنها تجعلنا نبدأ من جديد..

أنت الذي تخلق من الضعف قوة، ومن الانكسار الشموخ والتحدي، أعرف أنك قادر على تخطي هذه الظروف المحطّمة القاهرة.. أعرف..

- هذه المرة الضربة موجعة .. موجعة جدا يا رحيل، والجرح لم يجد بعد دواء ضدّ نزيفه، إنها أهانت رجولتي، وأذلّت حبّي وكرامتي وكبـ. وقبل أن يُكمل كلامه رنّ هاتفه إنّها دلال من جديد.. فهل أصبح الجاني يملك الشجاعة بل الوقاحة العارية من أن يواجه وكلّه ثقة في نيل مقصده؟!

- ألو، دلال انسيني
لا تتلفظي اسمي
وانسحبي من عالمي
دعيني أواري نعش كذبكِ في مقبرة النسيان
دعيني أتحرر من قيود الكتمان
لأجعلها سجانك للأبدية
فدعي حروف اسمي تتنفس الحرية
بعيدا عن نفس لوثت أنفس الآدمية
فلا تدنسيه بصوت تعود صفع الكلمات
من دون أن يراعي أَنّ للأنين لغات
لا تكرري لفظ اسمي
ولا تقولي لي شيئا
اتركي صورتي تسبح في البياض
فعالمي ليس محدود لا بالأرض ولا بالسماء
لا تحاولي أن تبتزي معاني الكلمات
فمن الحمق أن نتزين ونحن نعلم أن فترة الجمال محدودة
فسرعان ما يسقط القناع المزيف عبر أيام معدودة
لا تحاولي أن تقولي كلمة
فإن صادفك الندم يوما في نهاية الحياة
وهمس الموت عطشانا يود الارتواء
وسيطر عليك الخوف خشية الإله

بعدما تذكرت أن لكي دينا وإله
فتصفحي القرآن
فإن صادفك لفظ الرحمن فتذكري أنك خنت جسدا وروحا لإنسان كان اسمه عبد الرحمن
فاطلبي التوبة من الرحمن..
أقفل عبد الرحمن المحمول وخيّم الصّمت على الجلسة التي أصبحت في لحظة، جلسة خرساء فالموقف في غِنى عن أي تعليق لكن رحيل أرادت أن تكسر هذا السّكون الباكي بالاعتذار..
- سامحني عبد الرحمن وسوسني سوء الظن باتهامات سوداء فكنتَ البريء وكنت أنا الجاني..
- لا عليك رحيل لا داعي للاعتذار بل قولي لي كم كان الفراق مؤلما عندما يصاحب الاشتياق، ولكن لا أُنكر في هذه الفترة لقد أشبعت غيابك لوما وعتابا وحتى هجاءً فلم أتصورك يوما عشيقة النسيان.. مممممم ..البركة في دلال كانت تقول لي: ربما شغلتها عنك الظروف أكيد أنها تزوجت بغيث فهو غيور جدا ومع انشغالات البيت والأولاد أصبحت من الماضي..
- تضحك رحيل متفاجئة زوج، أولاد، بيت ،غيث!! ثم تصمت قليلا وتسأله: هل لديك أولاد؟
- أجل رُزقت بابنة رائعة وجميلة ومتعدّدة المواهب ولديها ابتسامة ساحرة وآسرة تُشه..
- تقطعه رحيل تشبه أباها أكيد.. يُدغدغني الفضول لكي أراها.. ما الاسم الذي اخترته لها؟ سيكون مميّزا اعلم ذلك؟
- غدا تريها إنها هنا عند مربيتي خالتي رزيقة، لم استطع تركها لدلال فلا طالما قست عليها وكانت تضربها دوما لأتفه الأسباب وهذا لا يعني أنني سأحرمها من رؤيتها..
- وكأنك تتكلم عن أخرى غير دلال، إنها تعشق الأطفال كيف لا

وهي ابنتها؟!

- سميت ابنتي رحيل..

- ماذا؟ سمّيتها على اسمي؟ أكنت غالية عليك لهذه الدرجة!؟

- أخبريني عن أحوالك؟ ماذا فعلتي طيلة هذه السنين؟ هل ارتبطتِ؟

- لا زلت كما أنا وكما عاهدتني دوما.. لست مُلكا لأحد فلم أجد بعد من يعشق الروح والفكر بدل عشق الجسد والفتن.. صحيح أن مجموعتنا تفكّكت.. لكنني لا زلت أعيش ثورتها المجنونة ومغامرتها العنيدة.. كان لدينا حلم وهدف، طموحاتنا أعمالنا الخيرية وهوآياتنا التي كنا نعمل على إبرازها في الحفلات الجامعية وفي المراكز الثقافية و...و... لكن للأسف ضاع الهدف عندما انتحر الحلم، وخاصة بعد رحيلك المفاجئ مع دلال إلى لندن، وسفر ذلك النذل معكما، وتنقل اسمهان للعيش في العاصمة، وانسحاب آية، زواج سارة، وهجرة غيث.. في الحقيقة لا طالما كنت أنت وغيث وأنا نبض المجموعة.. أما الباقي فكان الانضمام إليها بهدف التسلية أو لتضييع الوقت أو للفت الانتباه.. لهذا بعد رحيلكما المجموعة التي أسميناها نتنفس الحرية أصبحت لحظة منسية.

-غيث سافر! ألا زلت على اتصال مع غيث؟

- أجل سافر بعد رحيلك بأسبوعين .. كلّما تذكرت غيث أتذكر قسوتي معه.. لقد رحل من دون حتى أن يُودّعني..

- لِم؟ ماذا حصل؟

- في الحقيقة بعدما صارحني بحبّه تفاجأت، فاخترت في لحظة سوداء أن يكون ردّي جارحا لعل قلبه يقسو ويبتعد.. لأن حبه لي يؤذيه.. فمن الصعب أن نرى أعز الناس على قلوبنا أصابت قلبه الهالات السوداء من التعب والإرهاق النفسي من دون أن نحرك ساكنا.. فحاولت أن أساعده ولو على حسابي حتى لو استقر الكره في جعبته

تجاهي.. لعل هذا الكره الكاذب يُطفئ الحب ويجعله رمادا.. أتمنى أن يكون سعيدا.. لقد افتقدته حقا واشتقت إليه.. كان صعب فراقكما سويا وكأنني كنت طائرا محلقا وفي متعة التحليق انسحب جناحيّ فجأة عن جسدي فكان السقوط موجعا.. موجعا.. يُحذّر الصداقة بالوفاة.. فأشعرني بالوفاة!

- يستطيع الرّماد أن يشتعل من جديد رحيل.. وتستطيع الوفاة أن تقاوم الموت بتعويض ما فات بالبدء من جديد في رسم حياة الصداقة من جديد..

اشتقت للأستاذ أسامة دعينا نذهب لزيارته..

- كم كنت أحب نظرة التحدي والثقة في عينيه، وصرامته وتشبثه بمبادئه، وشموخه الذي لا ينحني لأي أحد مهما على منصبه..

- كم اشتقت إلى بلادي.. جزائري الحبيبة.. أتحدى أي بلد يضاهي عطرها المنعش ريحة لبلاد.. صدقيني أن نُسافر شيء جميل ولكن أن نعيش هناك أمر صعب جدا.. أحسست باليتم حقا.. فالجزائر أمي.. وحضنها مهما تخلى عنا وأهملنا بالجفاء، وكان باردا أحيانا إلا أنه عندما يحتضننا من جديد ينسينا كل ما فات.. الشباب يظن أن الجنة هناك، الجنة هي التي نصنعها نحن.. ومن الأفضل أن يهاجر الإنسان وهو يحمل هدفا وشهادة ترسم خُطاه، «يعني الواحد لازم يروح بقدرو.. ولاّ مايروحش..»

- «بلادي هي الجزائر.. وعليها راني حاير.. تمنيت نروحلها زاير.. إنها أغنيتك المفضلة..»

- معليش! ما زلت تتذكرين؟!

- أتذكر كل شيء وكأنك لم تسافر.. ذاكرتي متمسكة بذكرياتها!

قل لي طيلة هذه السنوات التي مضت ماذا فعلت هناك؟

- كنت أعمل ليل نهار لكي أستطيع إكمال دراستي هناك.. البداية كانت جد صعبة ومرهقة ولكن الشيء الذي كان يُحفزني أن

تعبي لم يذهب سُدا، لقد كنت من المتفوقين ونلت شهادات عديدة فقد كانت صورة صغيرتي رحيل دوما مضخة الطموح والتحدي عندي، أقسمت أنني لن أجعلها ترى الحرمان الذي عشته .. عُينت بعدها رئيس تحرير جريدة التحدي هي مشهورة جدا هناك .. لقد تعرضت خلالها لابتزازات وتهديدات وحتى للضرب.. لكن أكملت التحدي وصدق من قال أن الصحافة هي مهنة المتاعب.. ولكن بعدما فعلته دلال بي صفيت حساباتي هناك، استغرقت عاما كاملا وأنا أحاول أن أبدأ من جديد لكنني كرهت البلد فقرّرت العودة إلى بلادي أنا وصغيرتي للعيش بسلام.. سأفكّر بمشروع صغير أسميه رحيل.. ونبدأ فيه كلّنا هنا..

- أظن أن الصغيرة امتلكت كل شيء قبل أن تكبر لكنها تملك الحظ الوافر الذي سمح لها أن تكون أنت أبوها...فعلا هي محظوظة...

ينهض عبد الرحمن ويطلب من رحيل التمشي قليلا فلقد اشتاق و اشتاقت الذاكرة للانتعاش بنسيم ذكريات الماضي عن طريق مُتعة التّكرار.. وبينما هما يسيران ينتبه عبد الرحمن لوجود شخص يعرفه فيسأل رحيل..

- انظري هناك قرب ذلك المنزل المقابل ذلك المدهون بالبنفسجي، أليست هذه آية رفقة شاب وسيم..

تُحلّق رحيل من جديد بخيالها وتتساءل بغرابة: إنه رامي.. ربّما يُريد من آية أن تُقنعني بقبول صُحبته.. غبي ..أجل إنه التّفسير الوحيد... ولكن ما هذا الانسجام؟ وكأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد؟ إنه يمسك يدها ..ماذا يعني هذا؟.. إنها تبتسم وتضع يدها فوق يده.. ما الذي يحصل؟.. آية ستخبرني فيم بعد.. أكيد..

في تلك التساؤلات اليتيمة الإجابة يقطع عبد الرحمن حوار الرّوح متعجّبا: ما بالك شاردة هاتفك يرن..

- إنهم يطلبونني من العمل ؟

- ألو..

.رحيل أين أنت ؟ الكل في غرفة الاجتماع إلا أنت؟ بقي على المدير ثواني وسيأتي ..

- حسنا حسنا لا تصرخ أنا آتية حالا..

يالله إنها الثانية زوالا و أنا دوامي يبدأ على الواحدة والنصف.. لم أحس بمرور الوقت إطلاقا.. كيف لم انتبه لذالك..

- ما الذي يحدث معكِ يا رحيل؟!

- لقد أخذت الإذن بالغياب عن العمل هذا الصباح فقط وهذا المساء مهم جدا سيعقد المدير اجتماع على الثانية ليتعرّف على الموظفين الجدد، و أنا منهم ليكلفنا بمهمات متعددة للأسبوع القادم! لا بد أن أسرع بالذهاب.. أتأسّف منك عبد الرحمن علي أن أتركك الآن.. لكن أكيد سنلتقي في المساء ينتهي دوامي على الرابعة ونصف مساءً..

- أين تعملين لكي انتظرك أمام المقر؟ على فكرة املك سيارة جميلة..

- و أنا لا املك شيئا سوى وظيفتي ولكنني على وشك أن أخسرها اليوم، انتظرني أمام شركة الإعلام والاتصال والإشهار الموجودة بحي الأمل.. هيا إلى سيارتك الجميلة فلتوصلني في الحال.. أيها السائق الحزين..

- لازلتِ بنفس الروح المرحة.. طلباتك أوامر أيتها الأميرة الغامضة ولكن لا تقولي إنها نفس الشركة التي كنا نمر عليها عند الذهاب إلى الجامعة التي لا طالما كنت تتمني العمل فيها ! لستِ بالهينة !

- أجل إنها هي بذاتها.. هيا أسرع..أين سيارتك؟

- هاهي أمامك أ لم تُلفت انتباهك؟ تفضلي..

. أووه !! من اليوم فصاعدا أنت سائقي.. ولكن تعالى باكرا وإلا ستفقد عملك..

رحيل بأسلوبها المرح تجعل دوما المزاج يطلب ودادها، فجعلت

عبد الرحمن يقهقه طوال الطريق الذي مر كالثواني بصحبتها.. لقد وصلت بسرعة.. فلو أخذت الحافلة المحشوة بالراكبين بسبب السائق الذي لا يهمه عدد الراكبين الذي بالعادة يجب أن يُحدّد لسلامة الحافلة ورُكابها وإنّما يهمّه تسعيرة الرّكوب، فكثرة الحشد في الحافلة تجعلك تدعوا على الحافلة الله يعينها.. فالركّاب لصيقون ببعضهم فتشعر بالعجز وبالتذمّر.. فلا تجد حتى أين ستمسك ؟ أو أين ستقف؟ فتحسّ للحظة أنك أصبحت مثل وجبة الهمبورغر.. وبالتأكيد ذلك الضغط سيرفع السكر والضغط وخاصّة أن الحافلة تصبح أكثر بُطئا حين يحتاج الإنسان أن يصل بسرعة، وعدم التحمّل سيجبرك أن تخرج من الحافلة بعد معركة حامية لتكمل الطريق سيرا على الأقدام ويكون بالتالي ضاع كل المساء.. بل ضاع كل اليوم..

خرجت رحيل مسرعة من السيارة دون أن تودّع عبد الرّحمن ولم تقل له حتى شكرا.

تذهب بسرعة بأفكار مشوّشة وقد اختلطت الأمور عليها فاليوم أثقل كاهل عقلها الخيالي، وفي زحمة اقتراحات الأعذار أو اختيار كذبة مقنعة لسبب التأخر تجد نفسها أمام رئيس القسم قاسم من دون وعي أطلقت سراح ثلاث كلمات: صباح الخير سيدي!

- أي صباح ؟وأي خير؟ نحن في المساء...هل تظنين أن التأخير الذي يرافق مواعيدك الفوضوية سيكون اليوم في مصلحتك؟... ولاسيما أنك موظفة جديدة.. الاجتماع عُقِد منذ نصف ساعة.. ستستقبلين بعد قليل خبر طردك فالمدير كان يسأل عنك، فشركتنا لا تقبل الأخطاء ولا اجترار للأعذار إلى جانب ذلك أن مديرنا صعب و صارم لا يقبل التهاون ولا عدم الجدية ..اذهبي إلى غرفة الاجتماع.. لا لا انتظري لقد بدأ الموظفون بالخروج..

- أووف !! يالا حظّي ماذا سأفعل الآن؟

- اسألي نفسك؟
- سأذهب إليه وأُعلل سبب تأخري..
- لا أنصحك بذلك
- بلى سأذهب.. ماذا يظن نفسه ثلاثة أشهر لم أره ولم أعرف حتى كيف شكله؟.. كيف يستطيع أن يُسيّر الأمور.. يطردني وبعد.. المهم أن أواجه لم اعتد الهروب ولا الاستتار خلف جلباب الأعذار.. لدي فضول غريب يحرضني لمقابلته.. لِم قلبي يخفق بسرعة وكأنني في اختبار للبكالوريا؟..

تُكلم رحيل خيالها الحالم محدثة: كيف سيكون شكله يا تُرى؟ قال قاسم إنه جدي وحازم وصارم لابد أنه عجوز هرم كثير التذمر و الصراخ.. عيونه حادة وثاقبة و أنفه مقوس لا يقبل لا الحوار ولا النقاش.. ماذا سأفعل؟

أنا أكيد لا أقبل الإهانة.. لن أذهب إليه.. ما اسمه ؟ أنا لا أعرف حتى اسمه!؟

ومع هذا الارتباك تناديها سكرتيرة المدير: رحيل المدير يريدك بسرعة..

- أجل.. أجل أنا آتية حالا..

تتمتم رحيل في طريقها يا إلهي سيفصلني أكيد، ستقتلني أمي هذه المرة وستنعتني بالفاشلة، فكم من مقر عمل اشتغلت فيه وطردت بسبب عنادي ومزاجيتي المجنونة.. سيفرح وائل بجلوسي في البيت وتلبية أوامره وطلباته المتمردة.. أكيد سأُجن.. ليت أبي كان حيا ليكف وائل عن إزعاجي.. وليت لي أخت أشكيها همي ..

بخطى متثاقلة تارة و متسارعة تارة أخرى تكون رحيل قد وصلت إلى مكتب المدير فتدق الباب وتلقي السلام بكل احترام: مساء الخير

سيدي.. لكنه لا يرد مقابلا ظهره لاستقبالها..

بدأ الاستفزاز يتغلغل إلى رحيل بحيث سمح للخيال بالعودة من جديد.. فتخاطبه بنرفزة وتشكوه حالها: إنه مدير متعجرف ومغرور أي لباقة هذه!! تصمت وترجع من جديد لمواجهة الواقع: آسفة سيدي على عدم حضوري الاجتماع.. كان لدي ظرف طارئ..

لكنه لا يجيب ولا حتى لم يستدر لتشبع فضولها بملامح هيأته فتتعصّب، لكنها تنتبه إنه ليس عجوزا هرما كما تصورته، إن شعره أسود لامع وكتفاه عريضان، يبدو أنه من محبي السلطة والاستعباد وحان الوقت لإنهاء هذه المسرحية التي تلعب بطولتها الأحداث اللاواعية الغريبة التي تعيشها، فتخاطبه بلهجة يعاشرها الكبرياء والعزة قائلة له: أعرف أن عذري لم ينل رضاكم.. ومن السّهل جدا عليكم فصلي فالبطالون كُثروهم أحسن خبرة وكفاءة.. ولكن لا داعي لهذا الاستقبال البارد.. فأنتم يا سيدي أدرى منا بخبرتكم أن المعاملة هي سر نجاح مهنتنا.. فمهما تعددت مناصبنا واختلفت لابد أن لا ننسى أن الناس سواسية، فمن العيب أن نستقبل أي أحد بظهورنا ليس من عاداتنا ولا تقاليدنا.. نحن نحب أن نتكلم وجها لوجه ومع هذا فأنا أحترمكم، فكل منا يعرف كيف يعكس شخصيته للآخرين؟ ولكن كيف ستصل إلينا ؟؟..شكرا على الاستقبال واستقالتي ستكون لديك بعد قليل..

- كيف يجرؤون أن يفضحوا سر الكتابات..
ويخونونها بإسماعها لكذا إنسان..
فدعوني أقلم أظافر قلم الرصاص..
لأجر ذكرانا بأحرف تأبى الانصياع
خوفا من ظلم ممحاة
فليتك كنت قلم رصاص يعاني السواد
أفضل بكثير أن تكوني ممحاة..

أم شاء القدر.. أن تتساوى الدموع بالمطر؟!
عندما يهاجر الفرح المقر
ويترك الدمع يقهر المقل
ليلعب الحزن دور البطل
ليُسجن الأمل في ألبوم الصور

تجلس رحيل وملامحها تخاطب الحيرة فالمفاجأة أجلستها رغما عنها من دون حتى أن تطلب الإذن بالجلوس.. ولكنها استوعبت تلاعب الغموض معها.. تسأله : هل أنت غيث ..لا بد من أنك غيث.. أجل أنت غيث..أنت غيث..

يستدر المدير ولكن ملامحه تتطاير منها حنين الاشتياق اللائم إنه غيث فعلا.. تُكلّم رحيل نفسها من جديد فالدهشة والمفاجأة كانتا كافيتان لاستدعاء خيالها من جديد إنه القدر من جديد يزج أنفه في كل ما يتعلق بحياتي.. الآن فهمتُ لِم وُظِّفت بكل سهولة.. و لِم الجميع لم يصدقوا أن توظيفي لم يكن بواسطة أو رشوة؟؟..

بلغ تشابك الأفكار ذروته عند رحيل.. فهي لحد الآن لم تستوعب أنها كانت مع عبد الرحمن و الآن مع غيث.. في هذه الأثناء كانت عينا غيث لا تستحي من تأمّل رحيل وكأنه سيبدأ في رسم جمالها الحائر في هذه اللحظة التي لا طالما كان يستعدّ لها كما كان يشتاق لحدوثها...

بعدما تشبّعت عيناه بالتجوّل في جمالها اختار أن يقرأ على مسامعها خاطرة هي أفصح من أن تجعل الماضي ممرّا للمستقبل؟؟ لعلّها تستطيع نفخ الروح في الذّكريات لتحيي من جديد..

لا تُخرجوني من مصحتي
واتركوني أعانق جدران النسيان.
اتركوها تلتهم بنارها جراح الذكريات

دعوني أتنشق دخان الأحداث وحرقة الوجع وأنين الماضي قبل أن يصبح رماد ا في سلة اللامكان لعلي احتفظ بصورة انطفائها عبر الأيام

لا تحاولوا إشعال رمادي ثانية برمي الجمر على ما تبقى
لا ترموني بنبالي
ولا تسترقوا أجمل اللحظات
فجبن أن تسمّموا ذكرانا وهي على محك النسيان
لا تقتلوا جمل المعاني باغتيال الكلام
فحمق أن تكون شاعر وأنت تهدِم كل الأبيات
لا تلوموني على بعدي
فشوقكم لي حبل مشنقة وكرسي
وحنينكم لي أغنية موت بلا لحن
اتركوني بعيدا
بعيدا عن حمق كل استغفال، استغلال، استهبال، واستذكاء أغبياء حين استعاروا ثوب الكذب لباسا
فكان ضيّقا مفضوحا سرعان ما تعرَّتِ الروح تناجي الستر والغفرانَ
لا تستنجِدوا حلما تربّى على حِجر شيطان أخرس
ولا تدعوني على مأدُبة عشاء لوفاء ميت
فلست أهوى النظر لرقص الأعين وهي تخون الأجفان
ولا لانحناء الخجل و هو يُقبّل الندم
لست أدري أسباب دعوتي؟
فمتى استعاد النسيان ذاكرته ليبوح بعنواني؟؟ ليطردني من مصحتي
فهل ذكرهم بقصيدة قلم الرصاص التي احتضنوها بألف ممحاة؟؟

أم هل يعقل إنه أنجب الماضي من جديد ليبعثر أوراقي ويدخلني من جديد في فوضى التفاهاتِ ؟؟

فهل جنت الذكريات باستذكاري؟ ألا تأبه لاستنكاري؟؟

فلا تتحايلوا على طيبة القلب لمغازلة السماح

فالطيبة ليست ضعفا وإنما هي باب يعانقه وعي مفتاح

فما ذنبي أنا إذا أضعتموه

فكفوا الآن عن النواح

فقد ضجرت الأذن بتقليدكم صوت النباح

لا يزالون ينعون جثمان المبادئ في ثوبه الأبيض البهي في مقبرة الحرمان

ولا يزالون يرتدون ذالك القناع

يطلبون مني لحنا لأغنية عارية المعاني عطشى للمسات الصدق والإحساس

لست أدري لم تذكروني ؟

ولم هجوا حروفي؟

وسجنوا نقاطها ليلبسوا الحقيقة ثوب الحداد

فمتى كان لكم الحق في اعتقال الحياة

فبسمتي لن تموت إلا في حضن الفاه

من مصحة النسيان أخرجتموني بعدما رسمت للوداع لوحة بلا ألوان

كذب وافتراء من قال أن الألم سيصاهر النسيان يوما

كذا جراحهم كالورود الجميلة التي احتالت عليك حين انجذبت إليها فأدمتك أشواكها وظل الجرح عاشقا لك مهما نال منه الزمان ستبقى رائحة الوجع منه تفوح

فلا تتهموني بالجنون

عندما انسحب الصوت من إمارتي فارا من دون أمر

فتحدوني بالمواجهة لا بمثله بالهروب
أنا التي تعلم الصبر على يدي طول بال الصبر
فلا تظنوني سأرثي حالي بعدما أيقظتم رماد ذكرياتي

فأنتم ببساطة بساطي الذي تجول عليه أرجل كلماتي، رافعة حروفها بشموخ لأنها تحررت أخيرا من وهم اسمه مصحة النسيان..

تتنهد رحيل تنهيدة طويلة المدى ولكنها غزيرة المعاني تنظر إليه حائرة: إنها خاطرة مصحة النسيان، ولكنها كانت لأسمهان التي قبل أن ترحل قتلت قلبا وتركت جرحا عميقا في الروح.. فكلّما أتذكّرها أتذكر جرحها فبقدر ما كنت أتصوّر أنني أعرفها وجدتني أغبى من أن أعرفها.. ولكن كيف وصلت إليك؟ هل كنتما معا؟ لقد كتبتها وأعطيتها لها.. لا أعرف سبب غدرها وخيانتها لي لم أجد سببا قويا يخلق لها الأعذار.. لِم استمتعت بتشويه سُمعتي؟ ولِم اختارت قلما أسودا تشوّه به دفاتري لتنتعل حذاء النجاسة مفسدة بساط أحلامي و علاقاتي.. بطمس معالم الجمال فيه..

تمتلئ عينان رحيل بالدموع فكان ذلك كافيا بأن تجعل باقي الكلمات تحترق الواحدة تلوى الأخرى بداخلها رافضة الإفصاح على مكنوناتها بالصمت.. استطاع غيث أن يرى دموع عيناها التي تُنافس بريق الماس في طلته ولكنه لا يريد أن يُحزنها أكثر فالحزن خيّم فجأة على جمالها اللافت ولكن يجب أن يُخبرها بالحقيقة.. إنه يتأمّل في ملامحها الباكية فيصفعها بكلمتين قائلا: اسمهان ماتت!

- ماذا؟؟ ماتت! اسمهان ماتت! كيف ترحل قبل أن تخبرني لِم فعلت بي هذا؟ لم آذتني؟ كان عليها أن تبقى حية.. كنت على الأقل جوارها، كنت لن أدعها تحتاج شيئا كنت جعلت لها مَسكنا في جسدي.. كنت سأجعلها الروح والقلب والعقل..كيف ترحل؟؟ بهذه البساطة..

ماتت.. ماتت.. آه.. !!
أستغفر الله إنّا لله وإنّا إليه راجعون..

إن الفتاة التي لا طالما تميزت بالشخصية القوية المرحة الفرحة ذات القلب الصلب، تنفجر بالبكاء فمعالم اسمهان لا تزال تاركة كل حقائبها في ذكرياتها، ولكنها تفاجأت بالحقيقة عندما فتحت كل الحقائب مرة واحدة .. فكان صعبا جدا أن تتحمّل ما وجدته فيهم ..

رحيل تعود لتلم أشلاء الحزن المنكسر في لحظة.. بعدما تذكرت في غفلة أن غيث معها متمعّنا حالتها التي لا تُحب أن يراها فيها أحد، حتى غيث الذي وعدها أن البسمة هي هديته لها طول العمر فكيف يخلف وعده هذه المرة؟ فبدل أن يهديها البسمة يهديها الدمعة؟ ولكنها انفجرت مرة واحدة.. لم تكتف بدمعة واحدة أو اثنتين فقد أهلكت عيناها بالدموع..

لم يحتمل غيث رؤية رحيل في هذه الحالة فقال : لم أعتقد أن يُستقبل اللقاء بالدموع بدل الورود .. وآسف فأنا كنت سبب الدموع..
- لم تجبني عن سؤالي :هل كنتما معا؟
- لقد التقينا صدفة عندما كنت في زيارة لصديق لي في مستشفى بباريس.. لقد كانت تعالج هناك
- كانت في باريس.. كانت مريضة؟!
- أجل كانت مريضة بالسرطان ..

لقد فرحت جدا عندما رأتني لا زلت أتذكر كلماتها المليئة بالأنين والمعطرة بوجع المرض: الحمد لله أنني رأيت شخصا من الأصدقاء الذين أحببتهم قبل أن يُجبرني الموت على الرحيل.. بجعبتي الكثير من الأسرار التي كانت حبلا خانقا لي طيلة هذه السنوات والحمد لله أنني رأيتك لعلك تصلح ما أفسدته.. حاولت الاتصال برحيل إلا أنها رفضت

أي شيء يذكرها بي.. وطلبت مني إذا صادفتك يوما ما أن أجعلك تسامحينها فهي تُحبّك حبا مميزا ممزوجا بالسواد والبياض..

- أسامحها !! كنت أحبها حبا ينحني الحب ذاته أمامه.. أعطيتها كل شيء.. فسحقت كل شيء.. ورمت دفترنا المشترك في سلة المهملات.. من دون أن تدر أنني في جعبته..

كيف رحلت قبل أن تقول لي لم أجبرت وفاءها على الانتحار؟!!

لم تنشقت فجأة هواءً خائنا كان عنيفا سد أنفاسي فخنقني من دون أن يرحمني؟!!..

كيف تموت وتتركني بالموت أحيا؟؟!

-اهدئي رحيل.. سأوضح لكي كل شيء

اسمهان كانت تُحسّ دوما أنها الثانية بعدكِ، فأنت بالنسبة لها كنتِ الملكة وهي الوصيفة فإذا غابت الملكة تموت الوصيفة، دون أن ينتبه أحد لوفاتها.. كانت تحب عبد الرحمن رغم أنه على علاقة مع دلال ولكنه أيضا كان لا يبتعد عنك فالكل كان يظن أنك على علاقة معه إلا الأقربون الذي يعرفونك جيدا ولكن عندما يئست أن يكون عبد الرحمن لها.. أفهمت دلال أنكما على علاقة..

للأسف ! كانت تحب كل صديق يتقرب منك وللأسف كنت أنا أيضا من ضمن محبيها أو بالأحرى ظنت أنها تحبني..

أنت تعلمين كم كانت تعني لي كأخت لكنها تقربت أكثروأكثرباسم الصديقة لتجعل الصداقة بابا يفتح على ظلال أطلال الحب العميق.. ففي إحدى المرات تذمرتُ من معاملتك لي كصديق مثل عبد الرحمن إذا لم أقل أننا أخويك في الجامعة كان عبد الرحمن يشاركك مجال التنسيق بين الجمعيات والمراكز الثقافية وأنا شاركتك عنفوان الحرف والحفاظ على كرامة المعنى، وشموخ المعاني وهي في حُلة الزفاف..

أقنعتني بأنك تحبين عبد الرحمن ولكنه حب من طرف واحد
- آه ؟ماذا؟ حب من طرف وأحد ..أنا؟؟

- دعيني أكمل من دون مقاطعة.. قلت.. في البداية لم أتقبّل هذا الخبر كما لم أصدقه فأنت لا طالما كنت ترين الحرية هي التي تغترف من المبادئ والمُثل العليا لباسا، التي لا تجرؤ ولا تتجرّأ أن تتعدى الخطوط الحمراء التي تجعل ثوب الحرية لصّيقا فاضحا يخدش حياء المبادئ والأخلاق.. لذا كنت تخشين الارتباط وعلاقاتك كانت محصورة في الصداقة لأنها كانت تعكس الروح لا الجسد.. فظلمتني لما اعتبرتني في خانة الرجال الذين يفتنهم الجسد..لا مُحتوى الروح وقيمة الفكر.. لكنها اسمهان صديقة روحك التي تعرف كل شيء عنك.. كيف لي ألا أصدّقها ؟! رغم هذا جئتك لأتأكد بطريقة غير مباشرة..

أتتذكرين؟ قلت لكي: كوني نقاطا لأحرفي .. لننجب معا الكلمة.. لنزف المعاني بثوبها المكتمل المميز.. فأجهضت المعاني عندما بخلت بالنقاط لأحرفي فانتحرت كل أبياتي لما قلت بكل بساطة: الصداقة تموت حين يعبث الحب في مجاريها ويتعدى حدوده باغتيال الصداقة ليحيي الحب.. فتموت الصداقة من دون أن يولد الحب!

في الحقيقة جوابك كان مقصلة أعدمت الصداقة والحب معا؟
صدّقت كل كلام اسمهان وقررت أن أهجر كل الأمكنة التي زارها طيف إلهامك، لقد أرضت هذه النتيجة اسمهان فعلى الرغم من أنها لم تفز بقلبي، لكنها على الأقل كانت راضية لأنني لم أكن لكي.. فالغيرة والخوف من أن تملكي كل شيء يدمّرها.. حتى حبك لها تغار منه..

- آه يا غيث كل هذا كان الكتمان يُداريه في جعبتها...أشعر أنني في دوامة تيارها يجبرني على الرقص بعنف.. آمره بالتوقف فيزيدني عنفا.. ويضربني وجعا.. فيجعل العين سجينة الدمع.. حمق هو الحب! فحتى الحب لو زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه..

غيث.. سامحني أعترف أنني كنت قاسية في ردي.. فالندم لا طالما جاورني باللوم والعتاب، ولكنني كنت أخشى أن أكون سببا مباشرا في عذابك فاخترت أن أعذبك مرة.. وليس كل فترة..

عندما تتسلل ملامحك إلا خيالي معاتبة، تراني أخاطب الروح مرددة:

سيقول عني أنانية
أهديت ببساطة اسمي للنسيان
سيقول إنني كباقي النساء
لا..لا..
عفوا.. لست كباقي النساء
ولا من محبي الرجال
ولست المرأة اللعوب ولا محترفة الإغراء
لكنني فقط تشبهت بالشتاء
كنت الرياح
حين استفز المطر بداخلي البكاء
لعل عناق الرياح تُصبه بالارتياح
ولو حلق بعيدا من دون جناح
سيعرف الحقيقة يوما ما
وسيعرف أنني كنت الجريح والجراح
و سيدرك أنني قدمت له خدمة بجعله يكرهني
فمهما عذبني البعاد ..
وقال عني مالا يقال
سأتركه يفعل ما يشاء
ويقول عني ما شاء
فليكرهني كيفما شاء

- كيف أكرهك يا رحيل والكره تنازل على مبادئه السوداء حين

هواكِ، ولا سيما بعدما أطّلع على هذه الكلمات التي تجعل حتى الكره يدمن نقيضه.. لا أدري ما سر الكلمات عندك؟!..أنصتي جيدا لم أقول.. ربما تتذكرين شيئا ؟

أهداني الروح لأحيا
وترك جراحه تقبل جمر الاشتياق من دون شكوى
يذكرني بقطرات المطر العاشقة حين استغفلتني وقبلت خدي الوردي
فانتقم منها الشتاء وزفها في كفن الثلج المنسي
واسترق من منقذي معطفه الربيعي
فجعلني كزهرة من دون ري
وقع في شباك غرامي
ولا يقبل شريكا لإنقاذي
يتلذذ بانهيار مطر عيوني
وتفرحه ثلوج أفراحي
يخطط لفيضان أحزاني
منقذي كان هناك يترقب وجودي
في حين كانت الرياح تتوعد بتمزيقه ألف جزء
فترك روحه لباسا لدفآ روحي
وترك جسده سلاحا يحارب به من أجلي
يزورني حين تعتقل أحلامي
ويسترق النظر خلسة من نافذتي الجليدية ليطمئن على براءتي
فأحسست باقتحام دفئه إلى برودة عالمي رغم صلابة سجاني.
وشعرت بدقات قلبي تتكلم
تغازلني شعرا وهوى... فهل أصبح للقلب لغة ؟!!
وهل اتخذ القلب أخيرا الحب خلاصا ومأوى؟
أم إنه مرض؟ أو لعلّها العدوى؟

فهل لابدّ أن أقول أحبك لتسترجع هديتك باعتقال روحي تحت سجان النجوى؟!

لترضخ جنوني لاستبداد أعمى!
فعذرا لست مقالا يتيما في جريدة جوفاء
لست من هواة فن الثرثرة عند النساء
فشفاهي قلم تعشق تقبيل الأوراق
فالكلمات الصامتة أصبحت تنافس الصوت والصدى
بعدما استحمّت بقطرات الندى
فلم أعد أدري من أنا؟
فهل يُعقل أن لي قلبان؟؟
قلبا استباح حمق الهيام.. وقلبا تحتله الأحزان..
فهل أصبح قيد الكتمان لغتي المفضلة لحرية أفكاري؟؟
أم علي رفض هدية الروح فلن يتحمل خرافات كتاباتي؟؟
وسيصبها يوما ما في سلة المهملات
وينال من شرف كل المعاني و الكلمات
عندما يصفها بالحماقات!

- لا زلت أتذكر جيدا إنها خاطرة «هدية الروح» أعطيتها لأسمهان لتسلمك إياها لعلها تشفع لي عندك بعد ما أهديتك الوجع ..

- لقد تسلمتها في المستشفى أي بعد ستة أعوام فأسمهان مضى على وفاتها مدة قصيرة فقط تتراوح الستة أشهر!

- وكأن التخرج من الجامعة حسم رسم النهاية لكل منا بطريقته من دون أن ندري من دون أن يعطينا مُهلة للتشاور!

- كم أشتاق لتلك الأيام عندما كان القلم بيننا سيف منافسة.. من دون أن تحتارين أنت فعلا تملكين قلبان، قلب حجزه الخيال وقلب يحب بصمت خوفا من أن يُقتل حين يُباح..

- غيث.. كيف أخذت قرار الرجوع؟

- اسألي هدية الروح فهي من أجبرتني على الرجوع إلى جانب الوفاء بوعدي ..

- أي وعد؟؟

- أتذكرين يوم تخرجنا في طريق العودة، مررنا على هذه الشركة التي لا طالما استهوت فضولك للعمل فيها، وعدتك وقتها أنني سأكون مديرها يوما ما.. وسأوظفك فيها وستكون معاملتك فيها مميزة فيسمح لك بالغياب شريطة إذا كان العذر شغف الكتابة.. فباستطاعة الكثير أن يكتبوا لأجل الكتابة ولكنهم قلائل جدا من يكتبون حبا في الكتابة.. هؤلاء يجرون الأقلام بمتعة ويُحسّون بالحرف و بالنقطة وكإنها يد رسّام تتحسّس الملامح بمتعة لترسمها إنّ الكتابة غرام.. غرام.. أنها جنون لا يتقنه ولا يفهمه إلا صاحبه.. و الذي يُقدِّر كلّ هذا لا يقوى على سبّها بالحماقات..

لكنك ضحكت مطولا ظننتني أمزح.. غير أنني لا أهوى الهزل وقت الجد..

-هذا إذا لم تكن أنت المزاح نفسه.. تسكت رحيل مطولا لتسأله من جديد :غيث أجبني هل عدت من أجلي؟!

- اسألي هدية الروح.. اسألي الفكر والقلم.. اسألي الهواية المشتركة.. اسألي جمال الروح...

وجمال الجسد؟؟

- التقيت الجمال في أجساد كثيرة ولكن عشق الجسد هو عشق فاني.. يجذبك للمرة الأولى والثانية وحتى الثالثة ولكنه جمال مؤقت أجوف حين تجد الروح فيه بأبشع حلة، بل مشوهة تعاني الحروق من الدرجة الثالثة تحتاج إلى أكثر من عملية تجميل.. فيجعلك تنفر بقدر ما كنت تنجذب..

- أظن أن سفرك جعلك أكثر الناس تجربة وخبرة!

- يضحك غيث بقهقهة مجيبا: تشهين الأستاذ أسامة حين تتذمّرين.. حتى هونِلت منه لما فُزت بالتحدّي عندما جعلته يضحك بعد الهجاء اللاذع الذي تلقاه منكِ.. لو كنتُ مكانه لفصلتك من الجامعة.. فعلا كان ردك عجيبا فسخريته من النساء جعلتك تلقنينه درسا في فهم النساء

لا زلت أتذكر كلماتك الجريئة الهجائية الممتعة:

الـطبيعة تتجـمّل

بدموع الشـتاء تتكحّل

وبحـزنه تتـغـزّل

لعلّه يبقـى ولا يرحـل

الـروح بصـمت تتـأمّل

فحُـمق الرجـال لا يُتحمّل

كـريح جُنّـت لِتتمـرّد

فقـبل الهـجاء تمهّل

وفكّر قبل أن تبـدأ واسـأل

جنون النســاء تذكـّر

جنونــها حكــمة

وجـنونكم تهـــوُّر

فـلا تتعالي ولا تتمادى

ولا لغـرورك تســـجد

تمهّــل

فبعض الرجـــال

كلام معانيه ترحل

فتمهـّل

قبل أن تهجو النساء لِتسخر

فلم نُخلق لكي نتمرّد

ولا بكلمة عارية منكم نُقيد

فالسّماء لا تحتاج للأرض لِتُرفع

فالقمر وأحد والنجوم كُثُر

عيوبك تتستّر

عجرفة منك وتذمُّر

فتذُمّ قبل أن تمدح

ولغيرنا تتغزّل

غبي هو الرجل

حين لثورة المرأة يجهل

فشتّان.. وشتّان

بين هجاء امرأة وهجاء رجل

فأي هجاء لرجل؟؟

كرضيع بعد للكلام لم يتمكّن

وأي هجاء لامرأة؟؟

بكلمة تجعله القبر يسكُن

فتمهّـــل

قبل أن تُهين النساء

فكرامتها لا تنحني لتدلّل

وتأكّـــد

أن العفو بعدها مستحيل أن يُغتفر

ولو جاء الندم يتذلّل

فالعذر بعدها لا يُقبل

ولو انحنيت تحت الأقدام مترجّيا

لِتُقبّـــل

- لا زلت تمتاز بذاكرة قوية يا غيث...
في الحقيقة أنا كذلك حين أتذكر أستغرب فعلا تلك الشجاعة

المجنونة وهي تتحدى أستاذا يرتعب المدح حين يرى نظرته الحادة وطوله المستقيم وعضلاته اللافتة وهيأته الأنيقة التي تملؤها الرهبة؟ كيف تجرأ الهجاء أن يهجوه لا أدري؟!..

- كانت أول مرة نرى ضحكته، لكنه زاد مكانة عندنا لأنه رغم هيبته تقبل هجاءك، إنه رجل ديموقراطية وسحره في تقبّله للحوار وللنقد وللهجاء..

-عندما اقترب مني ضننته فعلا أنه سيصفعني لا مجال لكنه قال لي : لا بأس بأسلوبك ولكنك لا تزالين تعانين ضعفا في الخيال أنصحك بالمطالعة.. وكانت هذه ليست شهادة بل وساما..
- أجل إنها أيّام لا تُنسى...

إن الصداقة أهم بكثير من الحب، لأنها قنوعة تكتفي إلا بالمعاملة الروحية من دون تجاوزات للخطوط الحمراء فرب صديق أصبح حبيب.. و نظرية خاطئة من قال أن الحبيب يوم ما سيصبح صديق.. إنه وهم يتبع طريقه الجبن حين يعتريه خوف الفراق أو عدم اللقاء مجددا..

غيث لا تصدق عيناه إنه رأى رحيل مجددا.. ورحيل كعادتها لم تتغير تخاطب خيالها وهي تمتطي الشرود جوادا مسرعا نحو طريق لا تعرف نهايته: أجل إنه غيث بابتسامته الجميلة وطلته الجذابة لم تزده الأيام إلا نضجا ووعيا وهدوءًا وجمالا أيا ترى كيف يراني بعد هذه السنين؟!..

- رحيل.. أين ذهبت مرافقة الشرود كالعادة؟ وكأن السنين داعبتك بالصغر وليس بالكبر وكأن الزمان لم يمض عليك فطلتكِ لا تزال ساحرة وملابسكِ غريبة كالعادة ولكنها مميزة بذوقها العالي، ولكن، يوجد تغيير وأحد طرأ عليك، وأنا أتساءل من بداية اللقاء عن

سر السحر الجديد الذي سمح للجمال بأن يعلو رتبة.. إنه شعرك.. إنه كالليل المسدل على كتف السماء ليغزو منطلقا أسفل خاصرة الجبال.. و عيناكِ التي تنافس أنواع الماكياج بجمالهما الطبيعي، فسبحان الخالق حين وحّد الليل والنهار في عينيك ! و..

- توقف غيث أنت تُخجلني بكلامك.. أ هُو غزل أم مجاملة؟
- إنها الحقيقة لا غير.. لا تزال خداك أحمران من الخجل ..هدا يعني أن الحياء لم يستطع الفرار من قبضتك.

كان الاشتياق واضحا على كليهما، فقد فرضت الذّكريات وجودها على اللقاء، فسمحت لغيث بالتأمل أكثر في ملامحها لعله يعوّض عليه الأيام بل السنين التي لم يرها فيها : لقد زاد الحلا فيها حلا أم هي الحلا نفسه.. لكن سرعان ما يرن محمول رحيل فيتسبب بقطع وصال الروح والخيال معا حين يجتمعان، لكن السرحان تركها تمضي من دون أن تعي ذلك رغم أن رنتها قوية إنها أغنية المجموعة الموحدة التي لا طالما أحبوها معا إنها أغنية « تبكي الطيور» لوائل كفوري..

فيبتسم غيث فهذا يعني أنها لا تزال مرتبطة بالماضي، فيسرع ليردد: «والله حرام قدر ينسى و عيونو تنام..» فتنتبه رحيل إلى اقتحام صوت آخر ينافس رنة هاتفها فتنظر إلى غيث فتقول :إذا أخبرتك من المتصل سأفاجئك بقدر ما فاجأتني..
- قولي من؟!

تترك رحيل غيث فضوله يعض أصابعه من اللهفة لمعرفة هوية المتصل، فترد على الاتصال من دون أن تخبره: ألو ! مساء الخير كيف حالك؟ من الجميل أنك لحد الآن تحترم مواعيدك إنها الرابعة والنصف تماما سأخرج فورا ولكن معي لك مفاجأة ستكون سارة بقدر ماهي مدهشة بدون شك.

يندهش غيث ويتساءل في قرارة نفسه: من يكون يا ترى؟ أكيد إنه من مجموعتنا ولكن ما عساه يكون؟ فيسأل رحيل متلهفا قولي : من كان المتصل تعرفينني لا أطيق الانتظار إنني على أعصابي الآن..

فتجيبه بابتسامة مكر بريئة تعال معي وأنت تعرف من يكون؟..
فيتنهّد غيث فيرد قائلا: لا تزالين كما أنت هيا نخرج إذًا بسرعة ..
يفتح غيث الباب مسرعا تاركا خلفه رحيل التي تنادي: انتظرني غيث لم أنت مسرع هكذا؟ فيرد : تحملي مسؤولية عدم إخبارك..

يتسمر قاسم في مكانه مندهشا حائرا متسائلا ماذا فعلت هذه المجنونة ثانية إنها تناديه بغيث فقط بلا تكليف..؟؟

أما غيث ظل مُسرعا لكي يروي فضوله العطشان إلى أن خرج من الشركة، فوجد شابا أنيقا ينتظر.. فتساءل من يكون يا ترى؟ لا سيما أن ظهره أول من رآه.. فتلتحق رحيل تجري قائلة حرام عليك لقد أتعبتني هذه عقوبة أم قصاص؟ فيستدر عبد الرحمن حين داعب أذنيه صوتها.. فيجد غيث أمامه حائرا متفاجئا : لا أصدق ما أرى ؟عبد الرحمن ..أجل إنك عبد الرحمن تبدو شخصية هامة يا رجل..

فيرد عبد الرحمن مندهشا: إنه ليس يوم صدف فحسب إنه يوم المفاجآت، بل إنه القدر يلعب بأوراق الصدف كيفما شاء.. فهرول كل وأحد منهما إلى الآخر يتعانقان بلهفة بحب، باشتياق كان العناق مطولا تتغلغله كلمات معاتبة لم لا تسأل وأنت لِم غاب اتصالك؟..

عطر الصداقة انبعث من الموقف فسمح بدغدغة عيون رحيل الجميلتين، فدمعت عيناها وبنبرة طفولية قالت: كُفًّا عن هذا إنني متأثرة للغاية.. تبدوان مشتاقان لبعضكما أكثر من اشتياقكما لي.. فينتها كليهما لدموعها البراقة ضاحكين عليها فينظر عبد الرحمن إلى غيث كالعادة غامزا: أتجيب أم أجيب؟

فيضحك غيث مجيبا: لا تفوّت عليَّ هذه الفرصة موجّها نظره لرحيل قائلا: والله نعرف أن العناق مدون بالأحمر في دفتر مبادئك لذا حاولنا عدم تخطّي هذا الخط فكتمنا الاشتياق بداخلنا معبّرين عنه بالصمت وبالنظرات، فأنت التي تقولين العيون لغة تستطيع أن تقول ما يعجز اللسان والجسد عن البوح به..

ثم يصمت قليلا ويكمل ممازحا : أما في حالة أن أصبح اللون الأحمر اخضرا فدعينا نعبرعن اشتياقنا بالعناق وينظر إلى عبد الرحمن فيتقدمان نحوها فتبتعد رحيل مترجية ابتعدا عني .. يا إلهي اكتمل شمل غيث وعبد الرحمن علي ثانية كم سأعاني؟

فيضحك الجميع مرددين أغنية المجموعة:

صدق.. وحب.. ونظافة روح..
تتداوى كل لجروح..
ولي ما يحبنا يروح..
حبنا للخير.. كي العطر يفوح..
سر الغير...ولا مرة نبوح..
اكتب ..وعلي صوت الحق.. خليه كي النجمة يلوح..
عمرك لا تخاف...
بالخوف تنداس..
ارفع راسك وقول:
صدق..وحب.. ونظافة روح..
تتداوى كل لجروح..

وكأن الماضي من جديد يحزم حقائب العودة من جديد، فهل يستطيع أن يتّحد مع الحاضر في محاولة منه لكسب مودة المستقبل؟!

مضى الثلاثة في حيوية استمدوا قواها من اللقاء كما كانت البسمة لا تستطيع مفارقة الشفاه من كثرة ما استحلت طعم الفرحة

الحقيقي..

كان عبد الرحمن مُتسائلا فطرح سؤاله مباشرة إلى رحيل: هل تعملان معا؟

ضحكت رحيل مطولا مجيبة: لا والله لقد بلغني اليوم فقط أنه مديري. .أظن أن السفر أفادكما..

فيقاطعها عبد الرحمن مُمازحا: لو سافرت معنا لكنت أحسننا، أمّا غيث فلا طالما كان أكثرنا تفاؤلا وإرادة وطموحا، وإذا أراد شيئا فلن يتركه يفرّ منه حتى يناله، فيقتحم غيث الحوار بجملة لا واعية كانت كافية ليخيّم الصّمت حين قال: إلا مع رحيل لم أبلغ مرادي..

فيقطع عبد الرحمن وصال الصمت مُمازحا: أظن يا صديقي أنك اشتقت لهجاء الأميرة

- لا بالله عليك.. أتتذكّر يا عبد الرحمن في حفلة عيد ميلاد اسمهان؟ عندما بالغت في استفزازها.. كانت أول مرة أرى أجفانها لا تستطيع أن تواري ثقل الدموع فتنهمر فتمسحها بسرعة خوفا من أن يلاحظ أحد ذلك.. ولكن دفعتُ ثمن تلك الدموع غاليا فويل لهجاء كُتب بحبر دمعه أسود..

- بل إنني أتذكر ذلك جيدا وخاصة عندما سلمتني الرسالة لكي أعطيها لك.. صدقني غيث

شعرت أنها كانت مفخخة.. كلماتها قنابل تكاد تنفجر في يدي.. أتذكر أني قلت حينها الحمد لله أنها ليست لي..

- بالفعل يا صديقي كانت الكلمات مفخخة.. وحروفها حُسام كتمت أنفاسي وهددتني بالقتل.. فأدركت حينها أن ثورتها أصبحت عاصفة لا يهمها شيء.. لا تزال أعيني ترفض النسيان وها هي من جديد تستفزني بالمرور أمامي كما أستطيع أن أقرأها بوضوح:

لا تظن سكوتي من سمات إنسانه مغفلة

فالكلام لا يفيد مع قناع يتوارى خلف شخصية مبعثرة
والصمت ليس جبن إنما هو جواب لحماقات أُمرّرها بمزاجي
فلا تتذاكى ولا تتعالي وأنت تختبئ خلف قناع
فإذا شعرتَ يوما أنني غبية فتأكد أنه استغباء
عفوا فإن ذكائي يرفض الاستجابة لفكر الأغبياء
و...

قبل أن يكمل قاطعته رحيل بعنفوان خجول: أحم.. أحم ! ألا تتذكر سوى هذه الأشياء ولكنك أنت كنت سبب اندلاع ثورة غضب لا يؤخذ على أفكارها، فمزاحك تعدى حدوده جرّد أفكاري من وعيها ولكنك نافستها حتى وهي في حالة هلوسة، فكانت كلماتك أشد جنونا وقسوة حين قلت:

متى كانت البراءة سلاحا للوقاحة
ومتى تعلمت الطفلة الرضيعة النطق وهي لم تدخل أولى حضانة ؟!
فاحذري صغيرتي عناق الحروف حين تُجن
واحذري الجنون حين يقترن باسم غيث
أ..

يقاطعها عبد الرحمن : يا إلهي كم صدام ونزاع سيمرّ علي كي أصلح بينهما كل مرة؟ ها قد بدأ دخان الثورة في الاندلاع.. فيضحك الاثنان..

يتحدّث عبد الرحمن من جديد مُعوضا نبرة المزاح بالجدية حين قال : يجب أن تفهما أننا الآن علينا أن نكون يدا واحدة أكثر من أي وقت.. ثم يستدرك سائلا غيث بنبرة تعتريها نغمة جديدة، نغمة الحرقة ممتزجة بالخوف و الشوق و الحنين: ماذا يا صديقي ألا يزال مكاني غير محجوز؟

يرد غيث منفعلا لأنه استطاع أن يقرأ جيدا ما وراء الكلمات وما يقصده تماما: حاولت الاتصال دائما بك ..لكن دلال دوما كانت تقول لي أنك تحب قطع صلتك بالماضي، لم أصدق ما قالت ولو مرة لأنني دوما كنت على خلاف معها ومع آية، أخبرتها إنني سأسافر بعد خمسة عشرة يوما من سفركم وأن تعلمك بهذا.. لم تعطني العنوان لكي أراسلك.. ولم تتصل أنت بي ؟ ولم ترد عن هاتفك النقال؟!..

في الحقيقة لم أفهم شيئا وقتها..! وحين سافرت كان سفري مضنيا جدا، لن أخبركما كم تعبت ؟ كم جعت؟ كم مرة بت في العراء؟ نسيت حتى أنني حي، كان همي سوى إكمال دارستي يا أخي .

امتلأت عيناه بالدموع فأجبرته الدموع أن يلغي باقي الكلمات، ليصمت في لحظة كان فيها عبد الرحمن مندهشا مُتفاجئا لِم يسمعه، لكنه سرعان ما لم شمل شجاعته المتبقية من جديد ليضيف قرأت رسائلك ولكن بعد سبع سنوات، بعد عودتي للجزائر، فهمت حينها أنك وقتها كنت مصابا بحادث سير ألزمك الفراش لمدة شهر.. عبد الرحمن مكانك لا طالما كان بالقلب و...

كان رد فعل عبد الرحمن أسرع من الكلمات وجعل العناق المطول جوابا لكل الأسئلة والتفسيرات.. لكن القدمان أصابهما الإغماء فجأة فأرغمته على الجلوس على الأرض مطأطئا رأسه متسائلا: ماذا فعلت في حياتي حتى تفعل بي دلال كل هذا؟!! لم تحاول جاهدة قتل الماضي وهو سر حياتي.. فأنتم كنتم عائلتي؟!..

رغم كل هذا كنت أعطيك الأعذار يا غيث.. لكن في بعض الأحيان كان التساؤل يجبرني أن أتساءل: ما سر هذا الجفاء؟ ولكن عندما رأيتك نسيت كل شيء وهممت بعناقك.

اقترب غيث من عبد الرحمن ومد يده إليه لينهضه ثم ينظران

إلى رحيل، ليس من عادتها السكوت في مثل هذه المواقف فيسألانها عن السبب؟ فترد فورا : إنني فقط مستغربة ماذا فعلت الحياة بنا ولكن ليست دلال فقط من أحبت السواد حتى أسمهان كان ذلك لونها المفضل، كما كانت هي من أفسدت أفكار دلال اتجاهي؟ ربما ذلك قد يبرر سرخيانتها لك مع يحيى !؟.

يستعجب غيث صارخا منتفض: تبّا.. تبًّا.. تبًّا و سُحقا للزّمن.. لا طالما لم ارتح لها.. خائنة.. يحيى.. لا أصدق.. جبان..

فيجيب عبد الرحمن فورا من دون أن يسمح للفكر أن يأخذ وقته في التفكير كنت على حق يا غيث.. الخيانة ليس لها مبرر يا رحيل؟؟ لا أود أن نتحدث مرة أخرى عن أشخاص كانوا في الماضي قلم وفي الحاضر ممحاة، فنحن لسنا بحاجة لا للورق ولا للقلم ما دمنا استعملنا الممحاة، علينا أن نبدأ من جديد وننسى كل ما يؤلمنا باتحادنا مرة أخرى، فالروح ورقنا والأقلام قلوبنا...

أما الآن علي الذهاب.. لقد تأخرت على رحيل سنلتقي غدا.

يضحك غيث مُمازحا صديقه: أظنك يا صديقي عانيت الكثير مما جعل الجنون يرغب بصداقتك، ها هي رحيل معنا !..تجيبه رحيل مبتسمة: لا يا ذكي إنه يقصد ابنته الصغيرة رحيل.. فيضيف غيث في ملامح عاجزة أن ترسل رسالة واضحة في تعبيرها فأطلق سراح كلماته تباعا : لعلك أوفانا يا صديقي.. وما نسيت أحدا فينا.. قبّلها بالنيابة عنا لا بد أن تحضرها معك غدا، بل أنا سأوافيك في السهرة لا تقلق سأعرف مكانك، ما دمت لم تنس شيئا، لم تكفينا رحيل واحدة حتى يكون عندنا رحيلتان

مضى عبد الرحمن بالرحيل ضاحكا ومضى غيث ورحيل قُدما وهما يتشاجران كالعادة، ولكن شيء ما جعل غيث يوقف النزاع

باستدراكه لينادي عبد الرحمن قبل أن يقطع الشارع ليركب سيارته.. يلتفت عبد الرحمن متعجّب :ماذا تريد يا صديقي ؟ يجيبه غيث :لدي ابن اسمه عبد الرحمن..

سمح هذا الخبر بعودة عبد الرحمن إلى غيث بمعانقته من جديد.. في حين استطاعت الحيرة أن تمتلك رحيل أشد امتلاك بل شلّت أفكارها.. ولم تشعر إلا بصوت الخيال يهمس في أذنها الصغيرة مندهش لقد تزوّج ؟

استطاعت الدّهشة أن تكون الرفيق الرابع بينهم، ولكن سرعان ما تكون نغمات تبكي الطّيور محطّ انتباه لكليهما متجاهلين تلك الدّهشة العمياء، ليكملا معا: تبكي الطيور ترحل زهور.. تقطع رحيل انسجامهما برد عنيف: ماذا تريد يا وائل ؟ إلى أين سأذهب أنا آتية في الحال، تقطع الاتصال تنظر إليهما قائلة : إلى اللقاء أيها التوأمان؟ يسرع غيث بالرد سأوصلكِ إلى البيت ..ولو.. لا زلت أعرف بيتكم جيدا ..

- لا شكرا غيث.. وائل سيكون بانتظاري ولا أريد أن أعرضك للمشاكل.. في حين هي تَهُمُّ بالرحيل يتدخل عبد الرحمن قائلا: رحيل قبل أن تغادري أودّ منك أمرا وأرجو ألاّ تردّيه.. سيكون غريبا نوعا ما ولكنه شيء غريب بل إحساس يدفعني بشدة إلا طلبه ويلح على طلبه...

- طلبك مقبول عبد الرحمن قبل أن تطرحه فابنتك ترضّخني لأي طلب..

- ولكنه طلب صعب.. أرجوكِ خذيه على أنه بريء.

- أووف ! يا عبد الرحمن بدأت توترني.. هيا قل .. فوائل سيجعلني أندم على اليوم الذي خرجت فيه...

- يضحك، ما زلت كما أنت..

.أووف يا عبد الرحمن أنا ذاهبة.

اقترب عبد الرحمن قليلا من رحيل ثبت عيناه في عينيها فجعلها تصمت و تحتار فعيناه تغرق في الحزن والدموع تنتظر تحريرها لتحترق الواحدة تلوى الأخرى.. اسمراره امتزج بالشحوب إنه التعب أم هو شيء آخر...لكن وسامته وطوله ورشاقته تغطي ذلك الألم المُحجّب، و كأنه كان يبعث دعوات لأشلاء روحه ليجمعها ليتشجع ليعرض طلبه وبهمس قائلا: حسنا رحيل.... هل تسمحي لي بعناقك ؟

ذُهل غيث لطلب صديقه ..وفي لحظة مفاجئة كانت فيها رحيل أكثر من متفاجئة همّ بعناقها دون أن يسمح لها بالرد حتى.. حتى الخيال بقي صامت بلا تعليق وهي تحدثه:

ماذا يفعل؟

لم أتوقع منه أبدا طلبا كهذا؟

ماذا يحدث ؟ الحمد لله ليس هناك أحد في هذا الشارع أيظن إنه في لندن؟

ماذا لو رآني وائل!..

ما الذي يحدث ؟! إنني لا أستطيع صده؟؟

لا أقوى على صده ؟

إنني أحس بخفقان قلبه؟

إنني أحس بدفئه

لِم أحسّ إنه عناق وداع أبدي!..

ما باله لا يبتعد؟!

أم أن الاشتياق عنده أصيب بنوبة جنون؟..

لِم أحِسّ بالخوف.. بالحزن.. برغبة في البكاء؟!

إنني لا استطيع أن ابتعد أو أقاوم!

ولكنه لا يقول شيئا..

بل يكاد دفؤه أن يخبرني بشيء

إنه يبتعد ولكنني لا أريد ابتعاده.. لا أريد.. بل أمتنع... يبتعد

فيقترب من جديد يُقبّل جبينها و يأخذ غيث الذي لم يع بعد ما الذي يحصل.. و..

يرحلان معا يتركانها في مكانها جامدة.. ملامحها حائرة.. دموعها تنهمر من دون أن تستأذن من الأجفان أو تأخذ رخصة من العيون بالنزول.. في حين بدأت بالمشي همسها الخيال قائلا:

مساء محتاربين اثنين
فرحة تثاوبت معلنة النعاس
وحزن صحي بعدما كان في سبات
وتراني بينهما معلقا أعانق الاثنين في سُكات

تجيب رحيل خيالها من دون وعي بل من دون أن تعي سر المعاني التي توارت خلف الكلمات التي تبوح بها، أوربّما هي الروح تعلن حدادها من دون وفاة!

وداعا أنت أعزوأنقى من أن أحاول امتلاكك
وداعا أنت أعزوأنقى من أن أحاول امتلاكك

يتهاطل المطر فجأة وهي مسرعة الخُطى فسمح ذلك لامتزاج دموعها بدموع المطر فتردد متمتمه: أوراق الخريف تبدو شاحبة، كأنها تخشى اقتراب الشتاء.. ولكننا في الشتاء إننا في الشتاء.. إننا في الشتاء.. لم تبك السماء..؟ وقد كانت مشرقة..؟ كانت مشرقة.. كانت مشرقة..

وصلت رحيل إلى العمارة فوجدت وائل يستقبلها بكلمات مستفزة: «وصلت يا الراجل نتاعنا؟» تصمت وتكمل مسرعة فى صعود السلالم المجهدة، و أخيرا وصلت إلى الطابق الرابع أخرجت المفتاح من حقيبتها الكبيرة مرتعشة، يلحق بها وائل يمسكها من شعرها الليلي ويدخلها بعنف... تأتي الماما «ذهبية مسرعة دع أختك ألا تشفق لحالها من الصباح وهي تخدم إنها صحفية وهذا عذر كاف للتأخير..» فيرمي بها في الأرض فتنهض مسرعة متجهة إلى غرفتها مقفلة الباب بالمفتاح صارخة: «إلي يمد يدو على مرا موش راجل.. والراجل موش إلي يلبس سروال..»

سمحت هذه العبارات باستفزاز وائل الذي ظن أنها تعنيه بكلامها لاسيما أنه كان يلبس سروالا، فانقض على الباب ليكسره.. لكن توسلات الماما ذهبية سمحت له بالابتعاد خاصة بعدما أعطته المصروف أو حق الانصراف تاركا البيت بالدعاء : «ربي ينحيها.. وكتاش تتزوج باه نتهنّاو منها؟!»

تسمع رحيل صوت الباب حين قُفِل فتخرج من غرفتها فتقبّل أمّها قائلة: لولا وجودك لما بقيت دقيقة واحدة في هذا البيت.

فتردّ أمّها ربّما الحلّ الوحيد أن تقبلي بجارنا وحيد فالزّواج سُترة يا ابنتي..

.آه يا أمي لقد تكلمنا كثيرا في هذا الموضوع لا يناسبني وحيد هذا يكفي أن اسمه وحيد لما يريد بعد ثلاثين سنة أن يطلق الوحدة ويرغب بالزواج؟

. ستجلبين لي الجلطة بكلامك يوما ما، ادخلي الآن للاستحمام وأنا سأحضر لكي شوربة فريك ساخنة وحارة.. لكي لا تصابين بالزكام، فأنت مبللة كليا وهذه التنورة الصوفية القصيرة ليس هذا أوانها..

تشبهين الدجاجة المنتوفة، لما لم تلبس معطفك؟؟ تبحثين عن المرض فاتحة ذراعيك لعناقه، وبعدها تتذمرين.

. حاضر يا أحلى أم في الدنيا، كان الجو مشمسا فأنت أعلم مني بأحوال الطقس في باتنة أربع فصول في يوم واحد.

بينما كانت رحيل تستحم رنّ هاتف المنزل الذي سرعان ما ردّت عليه الماما ذهبية.. ولربّما لو كانت تعلم ما يحمل من خبر لما استطاعت أن ترد على الاتصال.. كان ذلك واضحا من ملامح وجهها الممتلئ الأبيض المحمر إلى الشحوب والاصفرار، الذي طرد كل الحمرة فيه فجأة من دون أن يعطيها مهلة للمغادرة.. بدأت ترتعش وتتمتم: كيف سأخبر رحيل؟ كيف سأقول لها هذا؟ كيف سأعلّمها؟

تخرج رحيل من الحمام مكلّمة أمها بتحسر: كنت أود اليوم المبيت عند ماما شريفة لولا خوفي من وائل.. آسفة أمي قصدي مربيتي شريفة أعرف أنك تنزعجين عندما أناديها بأمي إنها غيرة الأمهات.. أعرف.

. لا يا ابنتي ناديها كما تحبين لا طالما اعتبرتك ابنتها وكانت أمّا بمعنى الكلمة.. حتى خفت أن تسرقك مني لأنها لم ترزق بأولاد.. وبلهجة يعتريها الحزن أضافت: لكنني مع كل المشاكل التي بيننا كنا أختين ولا طالما أحببتها، فهي رفيقة دربي.

تحط رحيل رأسها في حجر أمّها بدلالها ورقتها الملائكية المعهودة.. وترد عليها قائلة: من الجميل أن تسمعك تقولين هذا فهي تحبك أكثر من أي أحد خاصة بعد وفاة زوجها حين وجدت نفسها بعد يومين في حرب شنها أهله للمطالبة بالميراث، فلم يستوعبوا وصيته التي توصي بكل شيء لها فلولاك لكانوا قد أخذوا منها كل شيء في لحظة كانت فيها لا ترغب بشيء، في الحقيقة لقد كبرت في عيني كثيرا وبصراحة لم أظنك تفعلين كل ذلك من أجلها فقد تركت البيت ومدللك وائل وحده، وسعيت أن تبقي معها والوقوف إلى جانبها في كطل تلك الأوقات

الصعبة، عندما كنت أراكما معا كنت أقول في نفسي كم أنا محظوظة بامتلاكي أُمّان، «ربي يطول في عمركما»، لن أتحمل خسارة أي واحدة منكما... ماما شريفة كلّمتني صباحا عندما كنت مع آية، تبدو متعبة وصّتني أن اهتم بنفسي وقالت أنها تحبني وألا أرفض أي شيء منها، وأُبلغ السلام لكي كانت غريبة نوعا ما، كان عليّا أن أمرّعليها، لكّنني لم استطع، إنشاء الله غدا سأمرّعليها.

. علينا دائما ألا نعارض مشيئة الخالق وكادت الدموع أن تصفع وجنتيها المصفرتين من الخبر الصامت لتهرب من الموقف الذي شعر بالعجز حين أصبحت مشاعرها تكاد تنفضح، قالت : انهضي من حجري يا عزيزتي لأحضر لكي شوربة لفريك فهي على أتم الاستعداد كي تلتهمينها..

ترد رحيل مُمازحة: كل هذا الدلال وتريدينني أن أتزوج، سنأكل سويا.. وهي تضحك، تقدّم الخيال هامسا في أذنيها: ماذا كانت تفعل آية مع رامي؟ لتذهب رحيل مسرعة إلى غرفتها.. تتصل بآية: ألو مساء الخير يا آية.

. أهلا هل أطلق سراحك عبد الرحمن؟ الحمد لله أنك تذكّرت أخيرا أن لك صديقة، هيا بسرعة أخبريني ما خفي عني من الأحداث.

. أول مرة تنتقين الكلمة الصحيحة وتضعينها في مكانها.. هناك أحداث كثيرة يا عزيزتي سأرويها لكي غدا، أخبريني أنت هل من جديد؟

. لا يا عزيزتي فلا أحد ينافسك في تغير مزاج الأحداث في حياتك..

. ألم تلتقي أنت أيضا من يغير مزاج حياتك؟

. لا.. لا أحد !!

. أ أنت متأكدة؟!.

. ما بك رحيل لقد عدت مباشرة إلى المنزل وقضيت الأمسية هنا في البيت على حظي.

. لم تتعود الصداقة بالنسبة لي أن تُروَى بالكذب لهذا ترينني

أكره الكذب، تبدوان منسجمين اليوم ..

.عمن تتكلمين ؟ هل..

. أجل رأيتكما.. ولكنني فوجئت بتعاملكما تبدوان على معرفة جيدة ببعض.. أخبريني آية من دون لف أو دوران. .ما الذي يجري؟

.أصارحك بالحقيقة ولا تنزعجين مني تعرفين معزتك عندي..

.أجل ..أنا أسمع..

. في الحقيقة أنا أعرف رامي لمدة طويلة.. كما كان يعرفك أنت أيضا ويراقبك خلال هذه المدة لأنه كان يهتم لأمرك فهو يراكِ غريبة الأطوار، ودوما كان يتساءل لم ترفضين أي شخص يتقرب منك؟!.. لم لا يعرف الحب طريقا سهلا إلى قلبكِ؟!..كان يتعجب لِم لحد الآن لم تتزوجي.. فلا أحد ينافس جمالكِ؟! أو أخلاقكِ.. كان يتمنّى أن يكون الفارس الذي يفوز بك، فتعرّف علي ليعرفكِ أكثر عن طريقي.. فنصحته بالابتعاد لأنه لن يبلغ مراده معكِ فأنت صعبة الإقناع والمنال.. فتحداني وكنتِ بيننا رهان..

خلال هذه المدة تعلقت به بل أحببته، و فزت بالرهان عندما يئس من محاولاته معك، فقد اختار أن يكمل معي وأبلغني قراره اليوم.. وأنا سعيدة جدا.. شكرا رحيل من دون أن تدري قدّمت لي خدمة العمر.. هذه كل الحكاية يا صديقتي.. ألو..ألو.. رحيل هل أنت معي؟

.للأسف أنا أسمعك.. ربما اخترت التوقيت الخاطئ لمصارحتي.. و ربما لم تكون لتخبريني حتى أسمع بزواجكما من عند أي جارة تحب الثرثرة.. لو أخبرتني من البداية أو بعدها بقليل كنت سأعذرك وكنت سأساعدك أيضا ولكن في شكل محترم على هذا.. أ

.رحيل لا تأخذي الأمور بحساسية.. «نورمال»!

. تقولين «نورمال؟ !!» أن أكون رهان بينكما نورمال؟ !!..أنا لا ألومه هو إطلاقا لأنه ليس أخي أو زميلي أو صديقي تربطه بي علاقة لسنوات وذكريات عديدة مثلك، ألوم صداقتك التي أجبرتها أن تنتحر

..بل إنها تحتضر.. وربما ستعلن عن وفاتها بعد دقائق، كلّ شيء عندك «نورمال» حتى أصبحت لا تفرقين بين العادي وغير العادي، إنني أدرك جيدا أنني أصبحت لا أهمكِ إطلاقا فعندما تصلين لهدفك بكل سهولة تبيعين كل شيء بكلمة واحدة هي «نورمال».

. أظن أن الغيرة تنال منك حتى أصبحت تعاني الحُمّى التي جعلتك تقولين مالا يجب أن يقال.. أنت خائفة أن تنال منكِ العنوسة وأنا سأتزوج قبلك، ماذا تظنين نفسكِ؟ أنك الوحيدة التي يود الاقتراب منها الرجال؟!..أنت مجردة إنسانة مسكينة و»نية» لأنها غبية لا تعرف قيمة الأشياء التي ممكن أن تحصل عليها، أو التي تضيعها من يدها باسم الخرافات والخيال ونزاعها الدائم بين الروح والجسد.. لا أعرف كيف احتملت كل هذه السخافات؟!، لقد حان دورك أن تكوني الجارية بدل الأميرة.

. تذكري دوما يا صديقتي يظل القمر وأحد والنجوم كثر.. فعلا أتمنى أنكِ لم تكوني غبية بقدر ما ستكونين لعبة للتسلية، يسرني سماع كل هذا منك، يبدو أنك كنت تعانين بصحبتي الكثير لأجل عيون وائل والآن يوجد البديل فلا داعي للاحتمال أكثر كوني على ثقة أنني لا أحزن ولا أخاف من فقدان أناس مثلك، بل أشفق عليهم بقدر ما أشفق عليك اللحظة.. في الأخير أنصحك ألا تحاولي أن تتصلي بي أبدا بعد أن يرميك رامي لأنني لن أكون رحيل المسكينة كما قلت.. فرحيل إذا مضت قُدما لا ترجع للوراء.

تقطع الاتصال تنكمش في سريرها تبكي في وحدة... يدللها خيالها بحنان يتلمس خصال شعرها السوداء، يحاكيها متأسف لما حصل: كيف للشتاء أن ينحصر في عينيك؟!..وكيف تمطر عيناك وسماؤها صافية من دون غيوم ؟! أم تلك النصاعة هي ثلوج تراكمت لعدة أيام وحان وقت ذوبانها ؟!..

ترد عليه من وعي لا واعي من تأثير الصدمة بكلمات متناثرة كأوراق الخريف : اسمهان... دلال ..آية ...أنا رهان.. نورماال..مسكينة .. نيّة ... غبية .. ؟ !!

تنهض تذهب باتجاه المرآة تنظر إلى نفسها تسأل: من هي؟ ومن تكون؟ تتلمس ملامحها في المرآة تجيب نفسها: إنها أنا؟ ولكن من أنا؟!ومن أكون؟! ربما قد يكون سؤال مجنون؟! أم إنني سأصاب بالجنون؟!

هناك شربداخلنا
ليس لنا بل هو لغيرنا
غريب ان ينسبون الشرلنا
و النقاء لغيرنا
تسكت ثم تتمتم من جديد :
كم هي جميلة التضحية
ولكن جمالها البشع
حين تضحي بكل شيء
ولا تجد بعدها أي شيء

ترجع رحيل إلى سريرها الربيعي تنكمش من جديد تسأل من جديد: لِم يُصر الجميع على لبس ذلك القناع الأسود؟

من أين أتاها ذلك الأسلوب؟! وتلك اللهجة؟! تلك الثقة العمياء؟!

نشعر بضحك هستيري
حين نتكلم لفترة طويلة
وغيرنا يستمع لنا لفترة طويلة
وفجأة عندما يتكلمون
نعرف حينها أننا كنا نتكلم مع أنفسنا
وعشنا مع صمتهم أكذوبة فهمنا لهم لمدة طويلة....

لِم يصرُّ الخطأ أن يفرض نفسه؟! ربما لأنه يلقى كل الدعم والترحاب فأصبح فخرا للتباهي؟ ولم أصبح الصواب عيبا محاربا من كل الجهات؟! وصاحبه منحني الرأس من الخجل؟ من السبب؟ من نحن؟! ولم كل هذا التزييف والتصنع؟ على من نكذب؟؟ على أنفسنا أم على غيرنا؟!...أم نلوم الزمان و العيب فينا وما للزمان عيب سوانا؟ ما أضيع الإنسان حين يكسب الناس جميعا و يخسر نفسه..

سأمشـي دومـا أمـامي
فلـم أتعـوّد أن أنظر للخلف
لألتقط أخـطاء الحمـقى
فوجودهم في الحياة أصبح من دون عبرة
أبكـيك يا زمني على ما تبقى
وعلى إثم لا يــزال يتمطّى
وعلى وفـــاء أدخلوه المنفى
ولم يتبـق
سوى ذكريات تتوسّل النسيان لتبقى
تتنهد بعمق لتردد على مسامعها :
كلّما تزيدني جرحا
أزيد تقرّبا من الله
لأنني أعلم
أن الجرح لا يداويه غير التقربّ من الله
فمرحبا بهديّة الآه
و تفضل بالمزيد أجرح فمالي أحد سواه
فصبر جميل وبالله المستعان

شتاء في عينيها ودموع المطر لا تتوقف، تبلل وسادتها الوردية، فالخيال وضع إصبعه على الجراح من دون أن يدرك أن أصعب الجراح

هي جراح القلوب، فنزيفها يطول، ومهما شفي تبقى آثاره عالقة مهما استعمل صاحبه مُرهما من أحسن الماركات لإزالته..

تدخل الماما ذهبية منزعجة ومرتبكة من دون أن تطرق الباب في حين أن الشحوب سمح لنفسه بالعبث في ملامحها الحزينة المرهقة: ما بالكي عزيزتي لقد سخنت الشوربة مرتين وأنت لم تأت؟

كانت رحيل في عالم آخر لم تسمع بل لم تنتبه أصلا لوجودها فتكمل حوارها مع خيالها: ربما الحق مع أمي، كان علي أن أكون في بيتي الآن مع زوج وأطفال أعيش لأجلهم، أعطيهم مدخرات طيبتي وحناني..

تقترب منها أكثر: يا جميلتي أنت تبكي، أخبروك أن شريفة ماتت، ليتهم لم يخبروكِ حتى تتقوتين ولو قليلا، بدل أن تبكي أدعي الرحمن أن يرحمها ويسكنها فسيح جنانه..

بدأت رحيل بالاستيعاب فقد جاءها الخبر في لحظة لا واعية بالحاضر، وسرعان ما أدركت نهضت من فراشها فزعة دفعة واحدة، أمي شريفة ماتت؟ ! .. لا !!هذا غير صحيح ..تصرخ ..وتنفجر:

كيف تتركني وأنا في ذروة احتياجي لها؟؟..كيف تصبح ذكرى بعدما كانت هي المأوى؟؟.. حديثها السلس وحديثها المحلى بالعسل...لا تقولي هذا يا أمي ولا تعيديه..

.إنها مشيئة الخالق اللهم لا اعتراض... علينا أن نقول إنا لله وإنا إليه راجعون، ونطلب لها الرحمة والغفران من الرحمن...

.رحلت، كيف رحلت وتركت نصاب خيمتي في روحها عالقة؟!

فمرآتي الغيورة لا تزال مغرمة ببريق عيونها الحالمة؟

كيف أسافر إليها و أجعلها مسكني؟

كيف رحلت؟

وتركت ابتسامة حائرة

تشرق حين تغرب الحياة
هل ستزورني حين يستأذن الليل من نجومه العالية ؟!
فتجتاح أحلامي المبعثرة لتهديني قبلة الواحدة تلوى الأخرى ؟!
فتحمر وجنتي الأحلام.. ويخجل المعنى ..
فهل لي أن أستفيق..؟ أن أقتنع أنها رحلت؟
رحلت من دون أن تهديني نظرة أخيرة
أم أن الموت يتحداني في حبها
ينافس أفكاري
يعشق الروح
ولا يأبه بالجسد
أراد الحياة فجأة
وأبى إلا أن يسافر معها ليتنفس من روحها.

.اجلسي يا ابنتي أنا هنا بجانبك ..استغفري الله وصلي لها ركعتين يريحان روحها الطاهرة، سنذهب بعد انتهائك إلى منزلها

. سأصلي لها كل يوم.. ولكن لن اذهب معك.. لا أريد حضور الجنازة.. إلى من أذهب؟ والتي أذهب إليها رحلت؟ ومن سأجد ؟إلا أقرباءها قصدي أعداءها.. صدق من قال «الأقارب عقارب».. ستجدينهم اكتسوا الفرحة ثوبا للحداد.. وستجدين ألسنتهم لا تجيد الاستغفار ولا ترتيل القرآن بل تجيد فن الثرثرة لمعرفة ما تركت من أملاك، ولا يفكرون إلا في ملئ بطونهن المنتفخة وجيوبهن الممتلئة الجائعة.

لا أود أن أحصر كل ذكرياتي معها في صورة أخيرة جامدة الملامح لتبقى لي كذكرى وداع..

.افعلي يا ابنتي ما يحلو لكي لكن اعلمي جيدا أن ألسنتهم ستنالك لفترة طويلة.

.لا يهمني.. فإساءاتهم دليل سوئهم..

في هذه اللحظات كان محمول رحيل لا يقف على الرنين.. لكنها لم تسمعه لأنه في الوضع الصامت خوفا من تحقيقات وائل اللامنتهية، وبعدها بزمن يطرق الباب بقوة، تذهب الماما ذهبية لفتح الباب مسرعة لتأتي بعدها بنفس السرعة إلى رحيل ..

. هناك شخص يشبه غيث يود رؤيتك في الحال لأمر طارئ، الحمد لله أن وائل خرج..و إلا كا.....

.غيث هنا!.. تذهب إليه و من دون كلمة تفضل تستقبله بالطرد: كيف تأتي في هذا الليل؟ ماذا تفعل؟! أنا في حالة لا تسمح برؤية أي أحد وقدومك هنا جنون .. ألا تزال تعاني حمى المراهقة؟

يقاطعها غيث والتوتر والقلق يرسمان بصمتهما في صوته: اسكتي قليلا دعيني أتكلم.. الجنون هو أنك تستعملين هاتفا من دون أن تردي عليه، عبد الرحمن في العناية المركزة إثر حادث فضيع برفقة دلال..

.ماذا ؟ انتظرني أبدل ثيابي وآتيك حالا

ذهبت رحيل تبدل ثيابها فلحقت أمها بها في نية لمنعها: إلى أين ستذهبين؟ ليس عندنا بنات يخرجن في الليل مع رجال، إذا جاء وائل سيكسر عظامك، ماذا يقول عنا الجيران عندما يرونك بصحبة رجل في هذا الوقت المتأخر، «واش ردو غيث ضرك ؟ معرفتوش خلاص تبدّل..»

تخرج رحيل مسرعة وترد برجفة صوت خانقة: إنه مديري يا أمي ارحميني.. أنا لست ذاهبة للتنزه أنا ذاهبة إلى المستشفى.. تنظر إلى غيث هيا نذهب بسرعة..

بعد صمت أبطله صوت السيارات والمارة تلتفت إلى غيث الذي كان جسده يسوق والروح في بلاد أخرى فتفزعه عندما انفجرت مرة واحدة بصوت عال: صارحني غيث هل عبد الرحمن بخير؟ للتو فقدت

أمي شريفة لا..

يقاطعها غيث قائلا : لا تقولها رحيل يكاد قلبي أن ينفصل عن دقاته تفاءلي أنا لا أملك صديقا وفيّا سواه...

.لا أستطيع... أسرع غيث أود رؤيته.. تبدو الطريق أعواما يجرّها الصيف على متن ساعة دون بطاريات..

.اهدئي رحيل صبر جميل وبالله المستعان..ها قد وصلنا.

تخرج رحيل من السيارة بسرعة من دون أن تنتظر غيث، من دون أن تسمع صراخه وهو يطالبها بالتوقّف.. لكنها لا تأبه، تحدث خيالها بخوف غير مكترثة لأحد: إنه الموت بردائه الأسود يخطف كل من أُحب.. لم يُصرّ على أخذ الروح وترك الجسد؟ لم يتحداني؟ لم لا يواجهني ؟!

و بسرعة يلحق غيث بها.. فيدخلان الغرفة الخطأ.. إنها دلال تبدو حالتها ليست بالخطرة لكن اسم عبد الرحمن كان يملأ الغرفة.. تستفيق تجد رحيل وغيث فتنفجر باكية متوسّلة رحيل وغيث بهذا الكلام : دعوه يسامحني، رحيل دعيه يسامحني، يُقاطعها الطبيب هل أنت رحيل ؟

. أجل أنا رحيل، هل من خطب..؟ أين عبد الرحمن؟ أخبرني بصراحة، هل هو بخير؟؟؟

. في الحقيقة المريض في حالة حرجة للغاية، إنه في العناية المركزة.. دخل في غيبوبة ولا يتلفظ سوى بكلمة واحدة هي رحيل، إنه في الطابق الثاني، غرفة رقم ٥

أغمي على دلال فور سماع الخبر، إنه إغماء الروح والجسد معا، فهي تعلم جدا أنه يقصد رحيل الكبيرة مستبعدة تجوّل ابنته إطلاقا في ذاكرته.

في هذه الأثناء رحيل لَم يدغدغها الاهتمام كثيرا بدلال لربّما خسرت قيمتها الإنسانية عندها، بل مسكت يد غيث قلقة خُذني إلى عبد الرحمن بسرعة..

يخرجان من الغرفة في حين أن الطبيب منهمك لإرجاع وعي دلال الرافض للوعي..

وهما يصعدان الدرج يصادفها الخيال بهمس إنه في العناية المركزة ويتلفظ اسمك من بين الجميع.. لقد احتضنت الدموع بعضها البعض في عينيها، فتكاثف حزنها، و أصبح وجهها البريء تغزوه الكآبة ليحتل بياضه اصفرار الخوف بعد فرار الدماء، وجسدها المتناسق الملفت للانتباه يعانقه التعب يحاول النيل منه فتبدو وكأنها عارضة أزياء مشرفة على الإغماء، فيثور شعرها الطويل الناعم عندما تهزه أخف نسمة هواء، فتبدو وكأنها أميرة من بلاد الأحزان بثوبها الأسود القصير الصوفي وذلك الحذاء الطويل الأسود الذي يصل لركبتيها فلا يدع مجالا لكي يظهر شيء سوى ذلك السواد الذي يعاني بكاء الجمال..

يصل غيث ورحيل إلى الغرفة رقم٥ فينظرون من خلال الزجاج جسد عبد الرحمن وهو موصول بأجهزة تحس بنبضه ولا تحس بألمه، كان المشهد يمثل الصدمة فلا غيث استطاع أن يتفوه بكلمة ولا رحيل استطاعت ذلك.

في هذه الأثناء يخرج الطبيب الذي كان بالداخل فيسمح للصدمة أن تتكلم، بعدما كانت خرساء فيسأله غيث متلهفا لسماع خبر يروي طمأنينته العطشى للارتواء: أخبرني حكيم هل حالته تحسنت؟
. في الحقيقة لا أستطيع أن أُطمئنكم بشيء، الوقت كاف بأن يُخبرنا بالنّتيجة، هناك نزيف بالدماغ، لقد أوقفنا النزيف لكنه الآن في غيبوبة وفي هذه الحالات الزيارات ممنوعة..

. أرجوك حكيم أود أن أراه، أنا رحيل من فضلك ربما أساعده على استعادة وعيه..

. حسنا ولكن من دون إطالة، وإذا استفاق أخبرينا بسرعة..

. حاضر حكيم ..

تدخل رحيل الغرفة بمهل تجلس أمامه فتسمع روحه تنادي رحيل.. رحيل.. تنهمر دموعها من دون أن تستأذن.. فتشعر بشيء ما لا تعرف معناه ولا سبب اقتحامه ألمفاجئ.

تُمسك يده برفق تحدثه بهمس: عبد الرحمن، أنا هنا بجانبك، إذا سمعتني حاول أن تضغط على يدي

إنها يدي تعانق يداك، رغم أن عناق الأيدي حرام، فلا طالما كنت أقول المرأة كالزهرة اليانعة إذا كثر لمسها ذبلت.

فكنت تضحك وتقول لي: لو كان التميّز بشرا، لكنت أنت التميز..
أعرفك شجاعا مقاوما لكلّ شيء تتحدّى التحدِّي إذا تحدّاك وتخشى منك المواجهة إذا واجهتها
أنسيت ما كنت تقول؟
أتحدّى السّماء والزّمان والمكان لا أبالي بمكائد إنسان
فالحفر تبتلع صاحبها بلا عناء
والجراح تسجد للنسيان
والدموع تنتحر ببسمة شفاه
وبراءة تُروى بالكبرياء
فويحا للسّماء
عندما أطلقت عنان دموع المطر
فحذف كل الأسماء
استفق عبد الرحمن..

إن يدي تخبرني بأن وجنتها احمرتا من دفا وحنان يدك الناعمة..

تبتسم ابتسامة ملامحها باكية مترجية: أريد سماع صوتك لعل الاطمئنان يكون مأواه قلبي الليلة، ولوكلمة، ولوحرف، المهم أن تصدر أي صوت، لا تجعل صمتك كالسوط.. يجلد خوفي ويستفز توتري .أحبك

.تتفاجأ رحيل من الكلمة التي سمعتها من عبد الرحمن !! لكنها تبتسم باكية قائلة : يا شقي لا تزال تمزح حتى و أنت على فراش الألم، «سلامتك فيا ولا فيك»

تفرح رحيل ثم تنتبه فتهرع للذهاب لمناداة الطبيب لكنه يمنعها قائلا:

.انتظري رحيل لا داعي من استدعاء أي أحد فلا شيء سينفع.

إنه الموت من هناك يناديني، لبّى ندائي... حين سمح بأن أراك، فالحمد لله أنه استجاب لدعائي.

لأقول لك: أحبّك ..حبّ الروح للروح، أحبّك من دون مقدمات ولا تسميات ولا عنونة للمشاعر.

أنت لا تدرين كيف أصبحت ملامح قلبي حين أخبرتني اسمهان بعلاقتك بغيث، أصبحت شاحبة تعاني فقر الإحساس بأن أكون معك فغيث صديقي وتوأمي، فاخترت أن أسافر بعيدا وأن أكون الصديق الوفي لكليكما، واخترت دلال لأنكِ اخترتها لي، يصمت، فيتنهد تنهيدة طويلة، بالكاد يستطيع الكلام في حين رحيل لم تستوعب بعد ما قاله لكنه يكمل بل وكأنه يُصِر على إفراج كل عبارة سجينة في ثناياه.

يودّ عبد الرحمن الحياة لكل الكلمات وحياته تشرف على الغروب ولكن من دون شروق، يشد على يدها، يتألم، ويردد بهمس مخيف مرتجف : عدت لكي أغيب من جديد، لأشتاق إليكم.

تجيبه خائفة: بالله عليك اسكت حالتك لا تسمح.

.بل إنها تسمح أكثر من أي وقت: هل أحببتني؟
.كف عن الكلام أرجوك دعني أنادي الطبيب
. ليس هناك وقت ربما عندما تأتين لا تجدينني ثانية راحتي في جوابك: هل أحببتني؟ هل أحببتني؟

تفر الكلمات من رحيل تستنجد بل تستغيث خيالها من جديد هل أحبه؟

تجيبه والدموع هي أولى الكلمات: عبد الرحمن لم أتصور أن تسألني هذا السؤال لا أعرف ما هو الحب؟ لكنني أحس بالارتياح بجانبك، أحس بالاشتياق إليك في غيابك، أخاف فقدانك، يسرني فرحك وتبكيني أحزانك، أحسّك مني وأنت منيّ إذا هذا يعني أنني أحبك فأنا أحبك !

. لا طالما سالت روحكِ بداخلي بصمت، أشتاق إليكِ فهل تشتاقين إلي؟ أنظر إلى عيونك المبحرة في السواد .هل تحبينني؟ تجيبيني بلغة العيون المتمردة: كف عن المزاح فأرد: أريدك لي ؟ فيحتار خجلك ويختار جوابا مُكابرا، متى كان الحب امتلاك أتركه حرّا متجملا ببراءة حالمة تخاف سجن القيود.

رحيل أيتها الغالية يشرف الموت على القدوم قولي شيئا لا تصمتي.

.لا لا لا لا
أصمت.. أصمت.. أصمت
لا تقل هذا أرجوك
لقد نال مني هوى الأحزان
وابتسامتي تشرق حين تغرب الحياة..
ابتلع الأنا والوجع في براءة حالمة
أُبالي بدمع استباح حرمة عيوني النائمة

واستنكرته أجفان أرهقتها أهداب متسائلة
لم كل هذا البكاء؟!
. رحيل أيتها الغالية، جراحي الدّامية اغسلها فانشرها فتراني أجد بقع الجراح لا تزال عالقة، إنها كلماتكِ المتميزة..
. بالله عليك كُفّ عن الحديث عبد الرحمن، فالقلب سيُغمى عليه من لدغة الأحزان المتتالية ليتني أنا ولا أنت..
. خُلقت لك الحياة يا رحيل
. ومن دونك كيف تحيى الحياة وكأنك تجرد الطبيعة من فصولها الأربعة..

. أعشق كلماتك المستوحاة من وحي الفطرة.. وإنني لأتذكّر جيّدا كلماتك لي قبل السفر: الله معك فلا تنساه لكي لا ينساك، وأنا الآن يجب أن أكون هناك، أضنتني هذه الحياة يا رحيل، ولم أتوقع أن تُجرّدني من أن أقول حتى كلمة أبي أوأُماه، فأنت من كان لها اسم أختاه، لن أنس أنّك الأولى التي تقبّلتني كصديق ولَم تنفري مني بعد أن علم الجميع إنني مجهول النسب أو بالأحرى لقيط، هذا الاسم «لقيط» الذي أصبح رافعا معناه بشموخ دون خجل دون خوف.. هكذا دائما كنت تقولين» لقيط وبعد» هل يهم الشخص أم الاسم أو الهوية؟ الأفكار هي من تصنع الأسماء، تهمني أنت كإنسان، كم كانت هذه الكلمات ترفع ثقتي وتجعلني أكثر إصرارا لوصول هدفي.. رحيـ...

. أترجّاك أن تصمت فالكلام أصبح يؤذي الجوارح..فلم تكن يوما ثرثارا..

. أذلّتني الحياة بتهمة لقيط وأدانتني وسلبوا مني البراءة، حتى طفولتي، مُراهقتي وحتى شبابي تعرض للخيانة، يتنهّد.. فيصمت.. ويتأمّل اللاّوجود.. ثم ينظر إليها والدمع قد نال من وُجنتها فتبسّم مخاطبا دمعها قائلا:

يا دمعتي تبسمي
فبعض الفرح يرهق كاهل أجفُني
أنا لست أحيا إذا لم تتبسم
اتركي عبير الروح يخشع لشكوتي
تبسّمي ولا تتنهّدي
فأنا تعب فؤادي من حزن نهش دمي
تبسّمي يا دمعتي
فأنا أموت لتحيا فرحتي
وأنت فرحتي يا رحيل

ينظر إلى السقف.. تستدير عيناه.. تلف حول كل الأشياء وكأنها ترى أشياء بل وكأنها تودّع المكان
ليرجع من جديد ليكمل كلامه بهمس: هناك فقط سأُحسّ بالعدالة.. هناك فقط سأُحسّ بالعدالة.
.من فضلك اسكت.. اسكت..

. سأسكت للأبد.. ولكن وصيتي لك: قولي لدلال أنني سامحتها بشرط أن تترك رحيل الصغيرة ولا بأس من زيارتها لها، لكن الآن لا أودّ رؤيتها، أمانتي لك هي رحيل الصغيرة، صوني الأمانة.. تجدينها عند خالتي رزيقة.. لا تُنسيني أدعولي دوما بالرّحمة والغفران يبتسم ليكمل همسه الحزين لا تكوني شحيحة فلا تنسي أن تتصدّقي علي والآن أود رؤية غيث بسرعة على انفراد.

تنصاع رحيل للأمر بسرعة وبدهشة.. تسحب يدها من يده رغم أنها كانت رافضة تركها يشدّها فترجع فيسمح لها بالذهاب ثانية فتتركه، وكأنّ ذلك ما كان يجب فعله، خرجت في ذهول، فتجد غيث أكثر توترًا.. تهمس بالكاد يسمعها: إنه يريدك بسرعة.

يدخل غيث يجثو على ركبتيه أمام السرير، يمسك يده، يقبّلها، يكلمه بصوت يحتله الخوف، الحزن، الأنين، الارتباك والتوتر.. كيف حالك يا صديقي يا أخي يا توأمي... روحي تتعذّب لأجلك؟

. اشتقت إليك كثيرا يا صديقي، لكني سأكون معك كريما هذه المرة سأترك لك رحيل الصغيرة والكبيرة أمانة عندك، تزوّجها يا توأمي واجعلا ابنتي ابنة لكما، فوالله لن أكون مُطمئنا عليها إلاّ معكما سأكون مُرتاحا، إذا كنت غاليا عليكما اتركوني أسافر مطمئنا باطمئناني على رحيليّا.

. لا تقل هذا يا صاحبي ستُشفى وتحيا من جديد وستكون معنا فأنت الرّوح .. ونحن الجسد...

. عدني يا صاحبي..

. وعد حر، أعدك يا صاحبي، قالها بصوت يرتجف باكيا مخنوقا، مُضيفا، لا تتركني يا صاحبي لا تفعلها معي أرجوك، لا تتركني، أتوسّلك، لا تلحق بعائلتي، لا تلحق بأبي و الخيتا حرية وخيي حرب، قلت لي أن شمس الحرية ستسطع في أرض فلسطين و«حنزور غزة ونصلي بالقدس ونتعشى عند الميمة مقلوبة وبعرفك على إخواني»

في الخارج رحيل لم تترك الرّواق أن يهدأ لثواني أو أن يحاول النوم فقد أرهقته ضربا بكعبها الذي ينشر أنينا باكيا، تنتظر بلهفة خروج غيث، فشعرها جن جنونه يتمايل يمينا وشمالا، فتنكمش في معطفها الذي يعانق تنورتها السوداء القصيرة.. تُحاكي ساقيها الرشيقتين الملتحفتين بالسّواد.

في هذه اللحظة يخرج غيث مُسرعا ينادي الطبيب.. يصرخ بشدة أسرعوا.. أسرعوا.. يضرب رأسه في الحائط بقوة فيترك دماءه هدية له.. أمّا رحيل بقيت جامدة، فزعة، تحاكي خيالها، إنه يبكي إنه لا يكف على الصّراخ، لقد فقد أعصابه.. لابد أنّ الأمر خطير.. ما الذي

أصاب عبد الرحمن؟.

في هذه الأثناء المتوترة المتصادمة الأحداث تأتي دلال على كرسي متحرّك بصحبة الممرّضة.. فتسأل ماذا يجري فيصرخ فيها غيث بلا وعي: أتمنى أن تكوني سعيدة الآن، فينحني رأس دلال فتُمطر عيونها مقبّلة الأرض، فتصمت من دون رد.. وترسم ملامحا للنّدم والذل..

فجأة أصبح السكون فوضى، طبيب يهمس لآخر وممرّضون داخلون وخارجون، في النهاية يخرج طبيب متجهّم الوجه عبوس الملامح هالات التعب تعانق دائرة عيونه، يسأل من هي زوجته؟ فتصرخ دلال بلهفة أنا.. أنا، يتدخل غيث أنا أخوه فيتقدم إلى غيث بصوت خافت: لم يكن في وسعنا فعل شيء أدعوا له بالرحمة !!

قالها وذهب وترك غيث جامدا لا يستوعب أن صديقه قد رحل.. أجل رحل ..رحل لن يراه ثانية، استطاعت كلا من رحيل ودلال قراءة الخبر من ملامح غيث الباكية، ومن قراءة فضولية جيدة لشفتي الطبيب، فتبّا لتلك الشفاه، وسُحقا لذلك اللسان، فيا ليته شُلّ قبل أن ينثر حروف كلمة موت قاتلة.

الصدمة تُعانق الجميع بحضن يملؤه الوجع و الألم، والحزن تمكن من الاستيلاء على قلوبهم ليجعلها كرهائن، تصرخ دلال لأنها لا تصدق أنه رحل ولا تصدق ما يجري، فأحيانا نكون محظوظين بارتكاب أخطاء يكون في وسعنا محيها ونبدأ من جديد، و لكن هناك أخطاء تبقى، بل تُصرُّ أن ندفع ثمنها مدى الحياة وكذا خطأ دلال.

رحيل تهمس لخيالها بلغة منهارة مليئة بالأسى: تُوفيّت الحياة اليوم، ودُفِنت الفرحة فجأة دون موعد، دون استئذان، لقد تاهت الرّوح في روحه الراحلة لينسدل ستار الوعي مُخلّدا الإغماء.. فسقطت على الأرض مرّة واحدة منهارة كورقة خريف تتطاير محتارة لأنها لا تدري

أين سيكون السّقوط، فالرّياح جدّ قوية؟

يلتفت غيث يرى زهرته اقتلعت من جذورها، من بُستانها.. تستقرّ في حضن الرّواق ..يُناديها فلا تسمع، لا تستفيق إنها غارقة في آلام الفراق، إنه وجع الوداع عندما يدرك أنّ الأمل في اللّقاء عقيم..

يكاد غيث يُجن وهو يتخبّط بين الحزن ، الخوف، الفراق، والاشتياق، وجسد حبيبته أمامه ينطفئ، فينتفض في ثورة هستيريا يدعمها الجنون، ويجلدها الحرمان بسوط الفقدان المميت.. فلم يجد من وسيلة لإخماد نار الحرقة، والألم هو شدّ جسمها المتخبّط إليه لعله يهدأ، لعل ثورته تخمد.. لكن للأسف ثورة الجسد أعنف، و عاصفة الرّوح ما تكاد تهدأ حتى سرعان ما تهبّ من جديد.. فيحتضنها بشدّة فترضخ كعصفور جريح لحضن يملؤه حزن الحب المعطّر برائحة الدّموع الملتهبة بنار الاشتياق، والفقدان معا..تمسكت به وكأنه الملجأ، كأنه المأوى اليتيم.

إنها تستفيق، إنّها تهدأ،إنها تعانقه بشدّة، إنه الصراع بين الانهيار والارتياح ..

إن غيث لا يكاد يصدّق لا وفاة عبد الرّحمن الذي كان كتوأمه، ولا جسد رحيل الحنون الذي يحتله فيوجعه أنينه، ويدفئ حزنه، إنه متأكّد أنّها عندما تستفيق ستعتبر عناقه جريمة، ولكنها هي الآن هادئة، مستسلمة..

إنه يخاطب نفسه بأسئلة حائرة، ترغب بمعانقة أجوبة صريحة، تُنعش روحه المشتاقة الحزينة: لو لم تجد راحة، و استقرارا، و أمانا في حضني الذي أرهقه الاشتياق إليها لما كانت ترضخ لهذا الاستسلام الناعم !؟ إنه حلم ،أو حظ ،أم غياب وعي اغتصبته وقاحة الصدمات !!!؟؟

فهل يا ترى تُحسّ بحبّي، بحزني، بألمي، باشتياقي ؟؟

إنّها تستفيق فتبتعد، فيُحِسّ ببرودة الرّوح، و فقدان الجسد، إنها تودّ الرّجوع إلى المنزل وهو ممسك بيدها يساعدها على مغادرة مكان الأنين.

في حين مغادرتهم يستوقفهم ممرض جامد الملامح يسألهم: هل أنتم أقارب السيدة دلال قاضي؟ إنها في العناية المركزة لم تحتمل صدمة وفاة زوجها فحاولت الانتحار بقطع شرايين يدها...

تردّ رحيل بكل قسوة: ماذا؟!! لا نعرف أحدا بهذا الاسم ولكننا فيم يخص زوجها عبد الرحمن سنتكفل بكل التكاليف والإجراءات.

الجرح بات عميقا إنها لا تودّ ربط أي صلة بها فالسّماح أخذ استراحة لبضع أيام أم شهور أو لربّما عدّة سنوات.

.حسنا إذن تفضلوا معنا.

. عزيزتي رحيل لم أعهدكِ بهذه القسوة، لا طالما كانت القسوة تفرّ منك لأنها تخاف أن تلين كيف استطاعت أن تنال منكِ اليوم فتتحداكِ دون أن تخشاكِ ؟

إذا تحسنت اذهبي معه أنا سأذهب لأطمئن على دلال.

. كيف تطالب الحنان ألا يقسو عندما يغتصب فكر الروح والجسد معا؟

لقد خانته، خانته يا غيث! دون أن تتردّد ،دون أن تفكر، دون أن تسأل ؟! وبعدها قتلته.. قتلته !!

كيف تُطالب القسوة أن تلين وهي خُلقت لتقسو ؟! لقد كانت تعرفه أكثر من نفسها وقست عليه أكثر من غيرها...

لن أستطيع رؤيتها من جديد جعلته يسافر مجروح، وهو نزيف الروح والجسد، لقد قتلتهما معا.. قتلتهما معا..

اهدئي رحيل لن أذهب إذا هذا سيجعل ثورة الألم تندلع عندك

من جديد، لكن يجب أن تعلمي أن عبد الرحمن قال لي إنني سامحتها، ولو كان في مكاننا لما توانى عن مساعدتها لأن الأمر متعلّق بالإنسانية لا غير، الذي فارقني الليلة هو أخي رحيل..أخي..

. لا تلمني غيث ليس بيدي إنها ثورة منهارة تُحطّم كل شيء من دون أن تسأل عن قيمة ما حطمت، اذهب إليها اطمئن عليها، أنا سألحق بالممرض ..

دلال تنال منها الصدمة و الأمل في إصلاح الأمور، ارتدى كفنا ملطخا بالسّواد فتُرعِبُها صورته المنتحرة ،فتفر فتختبئ في جناح اللاّوعي تتمنى، تتوسّل، وتترجّى الحقيقة أن تكون كابوسا يتلاشى فور الاستيقاظ ! لكن للأسف حتى التمنّي أصبح برخصة وأي رخصة، رخصة لا يستهويها سوى الانتحار وهو ساجد للموت.

يأتي غيث مُسرعا يمسك بيد رحيل، يجُرّها بسرعة و يصرخ بشدّة: دلال تموت من فضلكم أسرعوا، أنقذوها..

لِم يحضر الموت حين يقترب غيث أم أن حظه الأسود يبشّر دوما بالموت؟؟

يسرع الجميع وكأن الموت سارق يجب القبض عليه قبل أن يلوذ بالفرار آخذا غنيمته.

ينظر إلى رحيل نظرة الشاكي الباكي يترجاها والدموع لا تقاوم عنفوان الضعف، فتنهمر دون أن تكترث أنها ضعف في مفهوم الرجولة عند المجتمع الشرقي : إنها تريدك لبّي أمنيتها الأخيرة ،إنها الرّوح تناديك فلبي روح الندم.

تتلاشى القسوة، وتضمحل فتذهب مرافقة خُطاه، تمسك يده والرجفة تمتلكها حدّ الاستبداد

إنها مُحاصرة بالخوف والحزن و الألم ، تكاد تصل تسمع أنين الألفاظ ترسم معانيها في وجع الندم: عبد الرحمن.. عبد الرحمن.. لم رحلت؟ عبد الرحمن سامحني.. سامحني..

تدخل رحيل تناديها بصوت خافت :لا تخافي دلال أنا هنا، أنا معك وغيث أيضا، لا تقلقي عبد الرحمن سامحك كل شيء سيصبح على ما يرام، الزّمان كفيل بتضميد الجراح.

لم التهور؟ و الموت قضاء وقدر، لم فعلت هذا بنفسك؟ وما هذا الإهمال الذي يستطيع فيه المريض الحصول على مادة حادة يقطع بها شرايين حياته بيده؟؟

تستفيق دلال تشدّ على يد رحيل بصعوبة، بصوت مختنق غير واضح فالآهات تقطع الكلمات وتشردها فتجعلها معذبة المعنى: لا أستطيع أن أسامح نفسي.. لا استطيع.. أترجّاكم اجعلوا قبري مجاورا لقبر عبد الرحمن.. تتنهد تنهدا طويلا وتصمت.. لكن صمتها كان مخيفا و تنهدها سمح للروح بالسفر.

رحيل تنادي والفزع يستعمرها، والخوف يسجنها، والحزن أصبح سجانها: دلال.. دلال.. دلال.. لكنها لا ترد تصرخ، فتصرخ، فتصرخ، لا ترد !! تسأل غيث بل تترجّاه: ناديها أنت لربّما تجيبك ! إنها لا ترد ...لا ترد...أيقضها أرجوك.. لا ترد.. إنها لا ترد...

لكنه لا يجيب لا يكاد يستوعب ما الذي يحصل في هذه الليلة؟ تصرخ : أجبني غيث ما بها؟

يبقى جامدا..

فيجيبهم الطبيب بكل برودة : لقد ماتت تعالوا معي هناك إجراءات نتّخذُها !

تنهار رحيل من جديد فالصّدمات تتوالى، فلا جسمها، ولا عقلها أصبح يستوعب، تكاد تُجن.. يحملها غيث فتحتمي في انهياره الصامد تتمسك به كطفل صغير خائف يستتر في حضن أمّه ليشعر بالأمان، يشدها من جديد إليه يقول لها بصوت خافت: عزيزتي أنا معك للأبد لا تخافي، يمسح على شعرها الحرير الأسود الطويل، ويهمس لها قائلا

وقد أصبحت الدموع تسبح في الصدمات دون مجداف: أنا هنا لأجلك حبيبتي، أحيا لأجلك، معا سنتخطى كل هذه الأحزان..

تتشبّث به بشدّة تبلّل قميصه الأسود بوابل دموعها المنهارة العاصفة، تخبّئ ملامح وجهها الشاحبة الحزينة في حضنه الدافئ تهمسه قائلة: لا تتركني غيث لا ترحل عني أنت أيضا أنا خائفة، الفقدان مرض أصابني فجأة إنه يفقدني توازني ويصيب أفكاري بالشلل، ويحقن أحاسيسي بالوجع إنني أتألم، ابقي بجانبي ،أحتاج إليك أكثر من أي وقت مضى في حياتي، فالكلّ يبتعد عني ويترك لي ميراث الوجع، وحُرقة الفقدان، الكل يرحل دون أن يأخذني معه، الكل يذهب بدون رجعة، أنا لن أستطيع أن أتحمّل أكثر فالصّبر فقد صبره معي، وقرّر الانسحاب من حياتي تاركا شيك التحمّل بلا رصيد، أحِس بالضّياع، أحس بالخوف، أحس بالفقر، أنا متعبة، أنا مرهقة، أنا أموت !

من دون أن يرد، يضمّها إليه بشدّة فيتوحّد الرّوح والجسد توحّدا بريئا وكأنما هي لوحة يُلَملِم فيها حزن الشتاء نفسه وهو في حضن الطبيعة الباكية..

إنّ الأمان والرّاحة جعل العناق يدوم طويلا من دون أن ينتبها لا لمرض، لا لطبيب، ولا لمارّين فالفقر الحقيقي ليس فقر المال إنّما هو فقر الروح للحب، للحنان، وللأمان.

غيث تائه في عطر رحيل التي لا طالما كان مجرد الاقتراب منها حلم مرتبط بالمستحيل

ليتها لا تفارق روحي قبل جسدي فما حاجتي للأكسجين وعطرها نفس آخر للحياة يجعلني أتنفس من براءتها لحنا مميزا للوجود، إنّها الحياة.

تقاطعه رحيل بابتعادها تطلب منه أن يصحبها إلى البيت فيتساءل: هل أنعشها العناق بم يكفي كي تسترجع قواها من جديد؟!

إنه آذان الفجر إنها السادسة صباحا، لقد مضت الليلة كشهاب خاطف، كان فيه الوجع يُضني الروح قبل الجسد، والأمل أصبح عاجزا يخشى الفشل.

ينتهز خيال رحيل بإعطاء ملخص الأحداث في تاريخ اليوم ..

إنه ١٤ فيفري ٢٠١٢ إنه تاريخ الموت رسم الحداد في ذاكرة رحيل ولن تستطيع أو تجرؤ أن تنساه.

كان الوصول لمنزل رحيل سرعان ما تحقّق فكلاهما كان يحدِّث خياله الحائر فقد أصبح للّيل أخيرا لغة يتكلم بها بعدما كان أبكما أصما ! فيا ليته ما تكلّم، ولا استنطق كلمات جارحة، حروفها دامعة.

تفتح رحيل الباب لكن سرعان ما تفتحه، تكون الصفعة أوّل ما تستقبله ! فوائل ثورته بلغت ذروتها الأقصى، والصفعة ما هي إلاّ بداية لاندلاع ثورة بلا هدف مجهولة النهاية فهي أيضا لا تكفي بأن يعلن هياجه الثّائر غير المكترث للاستسلام.

فالسّؤال أين كنتِ؟ أو أين ذهبتِ؟ كان آخر شيء يفكّر فيه فلا داعي لأن يسأل أو يطمئن فالضرب هو الحل الأمثل و الوسيلة التي تريحه، وتُشعر إحساس الرجولة عنده يتعدّى ذروته.

تسقط رحيل فيمسكها من شعرها، يعذّبها، ويرغمُ خصائلها الليلية على الانتحار الواحدة تلوى الأخرى فيجرّها إلى البيت جرّا ظالما عنيفا سريعا وكأنها فضيحة أو عار يجب أن يُغتال.

رحيل تتفاجأ فالألم أصبح صمتا قاتلا فقد أصبحت لا تقوى لا على الكلام، ولا حتّى على الصراخ، بقيت صامتة فتوالت الصفعات وحتى الرّكلات.. دون أن يخجل من اقتحام لا واعي لجسد أنثىً، فصمتها يزيد ثورته انتعاشا فأصبح بركانا يحطِّم كل شيء، دون أن ينتبه أن شهامته تُنتقص مع كل ركلة.. مع كل صفعة، حتى اقتربت من الانعدام.

تصرخ الأم صرخة مدويّة تهزّ أرجاء العمارة، كان غيث لم يرحل

بعد فشراء علبة سجائر كانت ضرورية لتمضية ليلة أرملة، فعند ركوب سيارته سمع اسم رحيل يغزوه العويل و الاستنجاد، رجع مُهرولا تاركا باب سيّارته مفتوحا، ليصل بسرعة فيدق الباب لكن لا أحد يفتح ! فالبكاء والصراخ يلعب دور البطولة في الداخل، إن الأمر أصبح موضوعا للفضول فخروج الجيران واختلاق الأقاصيص والإشاعات بسرعة تتحدىّ البرق، أشعر غيث بالاختناق ليقرّر كسر الباب فالخوف على حبيبته جعله لا يخشى شيئا فقد أصبح كسر الباب حتمية مطلقة..

يكسر غيث الباب بمساعدة الجيران فيدخلون دفعة واحدة، فيجد غيث رحيل تسبح في دمائها وأمها تحتضنها بخوف وهلع تمتم قائلة :لم خرجتِ؟ لقد حذّرتك والله ستكون نهايتكِ على يديه.

يسرع غيث لحملها إلى المستشفى فيقابله وائل بلكمة أسقطته أرضا ليهدده بالقتل ويتهمه بهتك شرف أخته، و باقتحام بيته.. فيتدخل الجيران لفك النزاع ونظرات الاحتقار والاتهام كلها سهام موجهة لقلب رحيل الذي أصبح بحرا من الآلام..

لم يحتمل غيث ما سمعه فلم تكن ردّة فعله سوى رد اللكمة بلكمتين صارخا في وجهه: إن أختك أشرف من الشّرف، فعلا لا تستحق أختا مثل رحيل؟

يرد وائل منفعلا: أيّها الحقير لا يشرّفني أن تكون أختي، ومن قال إنها أختي إنها ليست أختي إنها بنت حرام، وما يأتينا منها سوى الحرام!

تتدخل الأم بدهشة حائرة متفاجئة: توقف يا وائل، ماذا تقول؟ بالله عليك أصمت، أصمت يردّ ثائرا : دعيني يا أمي فاليكن رجلا وليأخذها معه وليرجعا من حيث أتيا، إنها لا تمدّ لنا بصلة ! إنها بنت حرام ما ورثت عن أبيها سوى العار والفضيحة !..

الكلّ حائر فهو لا يعلم أن كلامه أكبر عار وأحقر فضيحة، السر الذي كان مستورا تهجّم عليه ونزع عنه ثوبه من دون حق فتركه عاريا يبحث عن مخبأ يداري فيه عورته!

الأم تنهاروتسقط أرضا تلطم وجهها معاتبة: ماذا فعلت يا وائل؟ لقد ذبحتني! لقد هتكت شرف السرّ، لقد وجعت قلبي.. و وجعت الإنسان الذي ربّاك.. وهو بين يدي خالقه.. «ربي ينحيك.. ربي يجازيك.. ربي يهديك.. ولا يدُّيك..»

تنهض رحيل تتمايل تقترب من وائل تنظر في عينيه تُحلّق في ملامح وجهه قائلة: إذا نسيت بنت الحرام، عليك ألا تنسى أنّ بنت الحرام كانت تعطيك نصف راتبها كلّ شهر لتستغله في السهر، في حين ينال منها التعب دون أن تشكوك أو أن تتذمر من جهد العمل، بنت الحرام كانت تخرج في عزّ الليل لتدق على أبواب الجيران لتطلب المساعدة في حمل أمّك إلى المستشفى لأنك كنت تفضل متعة السهر الأجوف الذي يغزوه الضياع مع أصدقاء تكسوهم التفاهة و اللاّمسؤولية، فلا ترد على مكالماتي ولا تأبه لا لحالة أمّك المريضة ولا لحاجيات البيت، ولا ماذا يخصّني فلغتك محصورة إلا في الصّراخ والضّرب والكلام المشوّه..

ليس ذنبي أن تكون بذرتي حرام، ولكنّها على الأقل أينعت شجرة مثمرة كان يرويها الإيمان، والمبادئ، التعب، والحزن. قل لي فقط بذرتك ماذا أثمرت؟

أبي سيظل أعز إنسان مهما شوّهت صورته، أبي الذي ربّاك وسهر الليالي لأجل أن يراك رجل، فالحمد لله أنه لم يرك الآن وأنت عاري الكرامة و أنت تطرد ابنته الوحيدة من بيته.. لكن لا عليك سأرحل لعلك ترتاح، ولعلك تعي تعب المسؤولية من بعدي، وتعي معنى الرجولة الحقيقية و...

دون أن تُكمل تكون الصفعة أسرع رد على كل ما قالت! فتسقط، يتدخل غيث فتمنعه من التدخل..

فتكمل حديثها لوائل صامدة منهارة فعجبا كيف يجتمع النقيضان: أ هكذا ترتاح؟.. ها أنا أمامك اضرب بأقصى قوتك.. لن يمنعك احد.. اضرب .. اضرب.. يقف وائل حائرا مندهشا..

تقطع الأم المشهد التراجيدي فتسرع لاحتضانها تترجاها ألاّ تذهب.. تمسح لها الدم الذي جعل مخزنه أنفها الصغير الجميل..

تبتسم ابتسامة منهارة تقبّلها على جبينها تهمس لها بتعب: إذا احتجت لأي شيء اتصلي بي، لا زلت ابنتك المدللة، لا زلتي أمّي مهما حدث.

تمسك يد غيث يحملها ويقول لوائل: إن رحيل لا تحتاج لأحد سأتزوجها في أقرب وقت ممكن ولكن لابد أن تعلم أن الحرام هو هتك حرمة أسرار العائلة أمام الجميع دون خجل دون استحياء.

الحرام أن تتّهمنا بالباطل دون أن تتأكّد ! شرف الناس غالي يا وائل وأنت تخطئ خطأً لا يُغتفر ستحاسب عليه يوما ما، و أنا أقولها علناً لك أمام كل الجيران : ستدفع الثمن غاليا.. غاليا جدّا على ما فعلته اليوم بأختك وبأمّك وبأبيك.. ستدفع الثمن غاليا.

يصرخ وائل بهيستيريا فقدت بصيرتها، يغازلها بعض من تأنيب الضمير: ليس أبي ليست أختي هيّا اخرجوا، ارحلوا ، ارحلوا..

يخرج الجميع، فيغلق الباب بقوّة، لكنه يعانده ويبقى فاتحا مصرعيه، لأنه نسي أنّ الباب كُسِر، و الذي كسر أحيانا مهما انصلح يبقى مشوّها!

رحيل تنظر إلى غيث كطفلة حُرمت من دميتها وضُربت، وعيونها كأنها حنفية تركت مفتوحة فأحدثت فوضى في مشاعر غيث تعبّر على الحدث بابتسامة بريئة باكية: لقد طردت من بيتي يا غيث، بيت والدي! أنا ابنة من؟ من هي أمي؟ لم أعد احتمل، أطوق للرحيل إلى مربيّتي شريفة، إلى عبد الرحمن، فما تكاد تكمل حتى يُغمى عليها..

يفزع غيث، إنها نزفت الكثير يداه ملطّخة بدمائها التي استغلته الشفاه لزينتها

غيث يرتعش، لدرجة أنه لا يقوى على حملها فالخوف من الفقدان أشبه بسكين من دون أسنان يمرّ على الرقبة فيشوهها،

ويعذّبها دون أن يوميتها.

يهرول مسرِعا إلى سيارته التي كانت تنتظر بخوف ومن المعجزة أنها لم تسرق ليسرع بها مباشرة إلى المستشفى، تدخل في غيبوبة لا تودّ أن تستفيق منها.. إنها الأعصاب ترفع الراية البيضاء، تنحني للاستسلام بخشوع.

يخرج الطبيب من الغرفة فيسرع إليه غيث بلهفة يسأله: هل هي بخير؟

-الحقيقة المريضة ترفض الحياة تعاني من انهيار عصبي حاد، وهناك كسر على مستوى اليد لكن ليس بالخطير، إلى جانب بعض الرضوض وآثار للكدمات إذا هي آثار ضرب علينا من تقديم بلاغ لدى الشرطة؟ أهي زوجتك؟

. لا إنها خطيبتي، لا لم تتعرض للضرب، تزحلقت عندما كانت تنظف السلالم، ولكن طمئني هل حالتها تدعو للقلق؟

. الحالة ستدعو للقلق إذا لم تستفق خلال ٤٨ ساعة..

غيث تمتلكه هستيريا ثائرة فيضرب يده في النافذة فينهار الزجاج متساقِطا مغمى عليه جارحا يده فيسرع الطبيب لإسعافه، وتهدئة جنون أعصابه الخائفة بطمأنته قائلا: إنها بحاجة لأقرب الناس إليها تحتاج فقط للإحساس بالأمان ،بالحب، لشيء يشعرها بالحياة من جديد، ادخل حاول أن تجعلها تستفيق.

يدخل غيث غرفتها المختنقة برائحة الدواء المتحررة والمحلقة في كل مكان يجلس بجانبها يتذكر كتاباتها وهي تتحدى الحزن والملل.. يردّد بعذوبة صوتٍ يختلج ثناياه نغمة البكاء:

مهما عاندتنا الأقدار
وأضنانا الحزن واستعمرنا الأرق
فلن ننحني ولن نكون كرق

بسمتي تشرق مع كل فجر
والحزن مهما تجاوزت حُرقته لوعة الجمر
سيُصبح رمادا برحمة الصّبر
أعيش الحياة باسم الأمل
وأحيى لكي تكون حروفي كالدّرر
تتغذّى من الجمال لتكسر ظلام الحزن بنور القمر
أحبّوا الحياة واستغلّوا الفرص
فالروح تعاف قُبل النّدم
افتحي عيناكِ عزيزتي دعيني أتجوّل في بحرهما الهادئ الحزين..
أين بريق التحدّي وحب الحياة؟
أين بسمتكِ التي تشرق في داخلي فتنير الأمل في روحي وقلبي فتجبرني أن أبتسم؟ أتعرفين المثل الجزائري القائل[ما يَتْحابُّوا حتى يتقابضوا] بطبيعتي الوسيم الذي لا يُقهر تتذكرين كثرة الفتيات اللواتي كنّ حولي، كل واحدة فيهن تتمنّى منّي كلمة أو حتّى نظرة إلاّ أنت ! على الرّغم من أننا كُنّا ندرس سويا في المدرج الخامس، أتذكّر جيّدا مكانك الأخير قرب تلك النافذة التي يشوّه ملامحها الجامدة زجاجها المشقّق.. في حين كنّا نتسامر ونضحك ونتبادل الحديث والنكت كنت تبقين أنت في مكانك متأمّلة صامتة !

أثرتِ انتباهي من الوهلة الأولى بصمتِك اللاّفت للانتباه، بطلّتِك البريئة وسحر شعرك الناعم الذي يعانق الليل في حين أن الشّمس تمتلك السّماء. سألت عليك الفتيات وجدتهن يعتبرنك متكبّرة، متعالية كان الكره متّخذا نبرة لأصواتهن ! فتساءلت عن سبب هذا الكره ؟! فوددت الاقتراب منك فجئتك لأتحدث إليك فسألتك: لِم أنت وحيدة ؟لم أنت صامتة؟ فابتسمتِ ابتسامة جميلة مستفزّة وقلتِ: خلِقنا بفم وأحد و أُذنين اثنين وذهبتِ..

ذهبتِ و تركتِ جوابكِ يُعمّر الفوضى بداخلي .. فكرت بعدها أنني عندما أطلب منك ربط علاقة عاطفية أنكِ فورا ستوافقين فأنا الذي لا تعرف كلمة لا طريقا إلى مسمعي وألف فتاة طلبت مني ورفضت، لم أظن أن الحرب ستندلع ! فقد استفزك طلبي خاصة طريقة عرضه التي ميّزها الغرور والكبرياء والثّقة العمياء بالموافقة المباشرة فكان بركان الملاك الهادئ مدمرّا.. من تظن نفسك؟ ومن أنت أصلا؟ قبل أن تعتمد على جمالك كوسيلة حاول أن تكون لديك شخصية لا يطمس ملامحها غروروعجرفة .. أكيد لا ! فأنت لا تناسب لا فكري ولا تطلعاتي وجمالك لا يهمّني فالورود بروعتها تذبل ولكنها على الأقل تترك عطرا؟ أسألت نفسك ما عطرك؟

أحسست حينها الدنيا تصفعني وكأن الأرض شُقّت لتبلعني..

أثرت اهتمامي واغتنمت فرصة أنك منخرطة في جمعية خيرية اسمها «نتنفس الحرية» عرفت بعدها أنك أنت التي أعطيت التسمية، وأنك وعبد الرحمن من مؤسسيها فكان لابد من أن أتقرب إليك بأي طريقة وفي أقرب وقت فعقدت صداقة متينة مع عبد الرحمن ويحيى.. في الحقيقة كانوا أروع ما يكون وخاصة عبد الرحمن فاقترحوا عليّ الانضمام إليكم..

لازلت أتذكر يوم اللقاء لقد بدت المفاجأة بالانضمام متفاجئة ثائرة تعاند ملامح براءتك الجذابة، فأحسست بأن الهجاء يُقبّل لسانك ويحرضك علي، فقَبل أن تبدئي بدأت كلماتي بالمبادرة لعلها تستطيع أن تمسح صورتي المتعجرفة لديك فقلت:

الجمال لغة تغازل العيون فما بال العيون بدل المدح تهاجمني بالهجاء؟

فلا تحكموا على ظاهر الإنسان

إن الروح تكلم الصمت والكتمان

والتعجرف أحيانا حكمة النسيان
فلست بيتا بلا جدران
ولست لوحة بلا ألوان
ولا شعرا بلا أبيات
أنا القلم وأنا الأوراق
أنا الحروف وأنا الكلمات
ليس غرورا فالغرور ميزة تُقبّل أحيانا الإنسان
لم اللوم ولم العتاب ولم عداد الأخطاء؟
فأنا ببساطة إنسان

ابتسمت بسمة ساحرة تشبه بسمة الربيع وهو يرتدي ثوبه البهي..

فلم أتمالك نفسي وقلت: سبحان الله حتى الإنسان أصبح يتحدى جمال الطبيعة بكل فصولها بابتسامة، فضحك الجميع وبدأت صفحة التعارف تمتلئ يوما بعد يوما.

ذهبت ذكريات غيث إلى بعيد فتخطت كل الأحزان فتجولت في الماضي من دون أن يحس أن رحيل ضغطت على يديه لكن ذاكرته تصرّ متحمسة لقراءة جميع صفحات الماضي، من دون كلل فلا تحتاج أي ذكرى أن تحجز مكانا لتذكُّر ذكراها!

قال بهمس يزفه الخوف على نعش الأمل: أنت التي قلت لي يوم وجدتني حائرا ليس كعادتي.. ولكنني تلك المرة كنتُ محتلاً مكانكِ في آخر القسم أتأمّل الجامعة وهي تحترق من طرف طُلاّبها.. تسريحات شعر غريبة.. فتيات بملابس خفيفة ونحن في عز الشتاء فأصبحت مقولة شكرا للشتاء لأنه ستر بعض النساء قد فقدت معناها، لأن العري تحدى النساء واحتلهم في عز الشتاء..

فهمهن محصور إلا في لفت الانتباه و كيفية أن تكون سندريلا لألف أمير، حوارهن أجوف عاري يبحث عن مبادئ و أخلاق تستره.. فمقياس الثقافة عندهن أن تتكلم كلمة أو كلمتين بالفرنسية أو الانجليزية، أو أن تكون أول من يعلم بآخر أغنية غربية صدرت أو ماهي آخر صيحة للموضة، واللغة العربية أصبحت بالنسبة لهم عار يجب عدم فضحه .. فهمت حينها عزلتك وفهمت غيرة الفتيات منك.. وعرفت سر تميزك، للأسف شباب الجامعة أكثرهم في ضياع.. في اصطناع.. بألف قناع..

سألتني: ما بال الحزن والوحدة والحيرة يتنافسون على عناقك بدل الفتيات اللواتي دوما حولك؟

كنتِ مختلفة ومميزة ومتميزة حتى في طرح السؤال فلم أجد سوى ثلاث كلمات: أنا حائر متعجب !!

فقلتِ: لم تتعجب والعجب بذاته يتعجب؟ فلا يهمّك فالهمّ بذاته لا يهمّه !!!

فما وجدت إلا الصّمت ردّا...فعاودتِ السؤال بطريقة مباشرة :ما بك اليوم على غير عادتك؟

كنت غير مصدقا أن رحيل هي من تجلس جنبي و تسألني بعدما كانت لا تطيق حتى النظر إلي !

قلت لك: أشياء كثيرة بداخلي تنادي بالتغيير من دون أن أشعر وكأن الروح تستأذن لترحل!

لا أدري ؟!

سجنتني حيرتي
ولم أعد افهم لغة أفكاري
فقد قيدني ارتباكي
لما وجدت القلب الأبكم تعلم الكلام
أحس بشيء غريب لا أدري ما هو؟

شيء يفرحني، يقلقني، يضحكني، يحزنني، فيبكيني.. أرفضه فيقتحمني من دون سلاح فاستقبله و أنا راضي لحكم الإله.

نظرت إليكِ فوجدت الحزن استرق البسمة من الشفاه والتهم بريق الفرحة و الأمل من عيناكِ، وبنبرة تعاني الاختناق قلتِ لي: كأنك يا غيث فتحت بابا من أبواب الجراح إنك تنادي الأحزان في حين أنني لا زلت أتذكر

ولم استطع أن أنسى
الطفلة البريئة التي تحيى في داخلي
تعاني الألم وتعزف الصبا على أوتار أهدابي
أناديها بحمق أُنوثتي
تعالي أريكِ لُعب الحياة
ترفض ويتعالى صوت النواح
ماذا افعل لأواري جثمانها في مقبرة النسيان؟
لِم تقلّد بُكاء الكمان؟

سكتِّ وعاودتِ الكلام: لم أكن أتوقع حدوث ما حدث ؟ ولكنه حدث ..فلا بدّ أن اعترف؟! من دون أن تكملي، رحلتِ وتركتني للحيرة تعبث بي كما تشاء لأقول : يا إلهي من تكون هذه الرحيل؟

جنّنتِ حيرتي
وجعلتِ الهذيان يحاول نسيان النسيان فيصفعني
أسأل خيال الروح
هل تتذكّرني؟

فيجيبني: ليست هي الأولى ولا الثانية ولكنها الأخيرة الغريبة الحالمة

أسأله من جديد
هل ستحبني؟
يرد: وهل يخفق قلب الأميرة النائمة؟

قلت: لماذا لا؟

قال: بعد نسيان قبلا !

في الحقيقة لم أفهم لغة خيالي المضطرب أيامها

فقد كنتِ محلّ اضطراب الجميع

رشاقتك الملفتة ومشيتك التي تتميز بها عارضات الأزياء، ابتسامتك التي تنافس براءة الصغار.

أو شعركِ الذي لا طالما تمتّع بالحرية يخشى الجمال أن يقاوم جماله فينحني أمامه..

مزاجية بطبعك، ولا تتواني لحظة في مساعدة أحد ولو كان من أعدائك، فأنت التي تقولين «الإنسانية ليس لها علاقة بالحب أو الكره»، وكان عبد الرحمن يقف دوما بجنبك للمساعدة.. الكل بروح متلهفة لتذوق الخير، لكنني انتهت أن جمالك المبتهج والمرح والتفاؤل والتحدي والقوة كلهم كانوا بذوق الأحزان التي تكشفها عيناك، ففهمت بعدها سحر عينيك.

بالله عليك لا تتركيني كما فعل أخي عبد الرحمن، رحل.. كما رحلت عائلتي، رحلوا.. رحلوا فتشبّهي بكل شيء.. إلا باسمك.. لا أريد لمعناه أن يقع، أنت الكون ومن دونك سأعشق الموت.

ما أقساه الفقدان !

و سفر الصبا

لذاكرة النسيان

أحتاج لتلك الممحاة

لعلي أنتقم من ظلم قلم رصاص

لست أدري

لربّما صرت

كلمة منسية

تفرّحروفها من نقاطها

فيختلّ المعنى
أو لربّما
كنت وجعا ألما يصرّ على رسم ملامح الأبدية
لا ترحلي
فبعض الرحيل رمح هو قاتلي

رحيل بعدما كانت تضغط على يديه راسمة على شفتيها بسمة حزينة تقطع وصال الماضي الذي عانق الحاضر في خيال غيث، وكأن الوعي صار واعيا بم حدث وكأن اسم عبد الرحمن من غيث جعلها تستوعب ما حصل في ليلة فقدت عذريتها علنا دون أن تستحي من أحد.

تستفيق رحيل بصرخة قوية.. ينصدم غيث، لكنها تصرخ وتضرب بيدها فتنتزع الإبرة الموصلة بشريانها تاركة جرحا يلطم ببشرتها تفرّ الدماء فتختبئ في غطاء السرير.. غيث يصرخ باستنجاد ممسكا يداها في محاولة لتهدئتها، لكنها تنتفض وكأنها شعرت أن إمساكه هو قيد آخر يخنقها، فتصرخ بشدة أتركني.. أتركني.. أحب أن أموت أن أموت اتركني تضرب برجليها الفاتنتين الرشيقتين السرير فتخدش حياءه.. فيستسلم لها.

يأتي الطبيب والممرض بسرعة ليطردا غيث من الغرفة الذي أصرّ على البقاء بشدة.. فيشتدّ انهيار رحيل وتزداد حدّة فجسمها الرشيق ينتفض وكأنه صرع المشاعر يصل لذروته الأقصى وبإبرة تسكن وتهدأ من جديد، تخلد ثورتها تدريجيا ناثرة كلماتها بابا.. من هي أمي؟ مربيتي...ماما ..عبد الرحمن.. دلال.. اسمهان.. آية.. لا تتركني غيث.. غيث.. غيث..

يحاول الاقتراب منها يمنعه الطبيب ويخرجه بإقناعه أنها لابد أن تهدأ الآن، إذا كنت تحب شفاءها بسرعة.. ويتركه في مكانه منتصبا،

ولكن سرعان ما أصبحت رجلاه لا تقوى على الصمود فيجلس على الأرض.. خائفا شاحبا يرتجف وخفقات قلبه تزداد بسرعة لقد قالت غيث قالت غيث لا تتركني.. كيف عساها أن تحتمل وتتحمّل؟ لا أكاد أن أصدق كيف لكلمة أن تغير حياة بشر إنها بنت حرام.. من هي أمها؟ رحلت يا عبد الرحمن...أجل رحلت.. تاركا لي جرحا عميقا يا أخي، أحتاج إليك الآن، أحتاجك بجانبي، أحتاج لكلّ تلك الأيام التي نتقاسم فيها كل شيء، أحتاج إلى أحد بجانبي، انهضي رحيل.. بالله عليك انهضي.. انهضي..

فجأة ينتفض ويصفع جبينه وكأنه يُعاقب ذاكرته قائلا: ابنة عبد الرحمن.. ما دامت رحيل نائمة الآن.. عليّ أن أحضرها من خالتي رزيقة، ولعلّ حضنها الدافئ ينسيني كل ما حدث وما يحدث، اشتقت إليها فهي الأم الحنون التي نلتجئ إليها أنا وعبد الرحمن، يا إلهي ! لكن كيف سأحمّلها الخبروهي من ربّته؟ كيف ستتحمّل الخبر؟

ساعدني يا ربي ..فأنت المعين وبك أستعين.. وما أنا إلا عبدك الضعيف..

يذهب غيث مسرعا والدّموع تغسل وجهه والعيون منتفخة محمرة متجها نحو خالتي رزيقة فيصل بسرعة يدق الباب بدون توقّف فتصرخ : «بشويّة ..بالعقل ..راني جاية شكون؟»

غيث لا يزال يدق بشدّة فلم يسمع شيئا مما قالت، تفتح الباب تندهش !!غيث.. أنت غيث؟؟ ابني الغالي تحتضنه بشدة.. متى عدت؟ تقبّله بحرارة تعاود احتضانه من جديد.. نسيتني يا شقي أرسلت لي رسالة واحدة فقط، فينفجر غيث بالبكاء بل يجهش بصوت مرتفع.. تشدّه إليها وتغلق الباب.

في حين خالتي رزيقة وغيث يأخذان ثأرهما من الاشتياق تأتي طفلة صغيرة بشعر أسود طويل وعيون واسعة سوداء وبشرة نيرة

بيضاء كالقمر، يصمت غيث، بل يتفاجأ يا الله إنها رحيل الصغيرة.. إنّها تشبهها فعلا.. فتنطق ظننتك بابا، فيتفاجأ يا الله نفس نبرة الصوت.. فيحتضنها باكيا قائلا: أنا غيث عمّك أوصاني أبوك أن أهتم بكي حتى يرجع، فتجيبه لكنه ذهب دون أن يعطيني قبلة الصباح، فيكبراندهاشه لأنها قالتها بالعربية الفصحى فيقبّلها بشدة: لقد أوصاني إعطاءك إياها.. فتصرخ لقد كسرت فكي يا هذا، وتضربه مازحة، فيضحك الجميع، فيتذكّر فترجع عيناه تدمع، فتسأله خالتي رزيقة: أين عبد الرحمن من البارحة لم يعد، اتصل بي وقال لي عندي لك مفاجأة أظنك أنت المفاجأة، فيرد وبالكاد ينطق: كنا سويا البارحة زرنا أستاذنا أسامة لقد كان مفتخرا بنا جدا، إلى أن اتصلت دلال به فودّعني ليلتقي بها لأنه قال علينا أن نُسوي الأمور للمرة الأخيرة، وبالفعل كانت المرة الأخيرة، إنها الأخيرة.

خالتي رزيقة بدأت تشمّ رائحة الحزن والأسى فما الذي يُبكيه ؟ماذا حصل..؟ تأخذ رحيل التي بدأت تتثاوب، مسكتها و أخذتها إلى غرفتها وقبل أن تذهب قالتّ: انتظرني سآتي حالا، فتقاطعها رحيل الصغيرة: عمي !اهتم بأبي جيدا.. وقبّله فأنا سأنتظره ليروي لي قصة قبل النّوم.

بقي غيث متأثّرا جدا فلم يجد ما يرد.. ذهبت وجعلته مُحطّما حزينا كئيبا منكسرا.

بعد ربع ساعة ترجع خالتي رزيقة خائفة لقد نامت رحيل، ابنة مطيعة.. ومتميزة.. وقبل أن تسأله ما الذي يحدث؟ أين هو عبد الرحمن؟ تنهّد ..فتسأله مباشرة: ما الذي حصل بين عبد الرحمن ودلال.. هيا أخبرني؟

.أخاف عليكِ ألا تحتملي فأنت كنت بمثابة أمّه بل اعتبرك أمّه فعلا.. لقد كان يتألم عندما يقول كلمة «ماما» هذه الكلمة التي تُذكّره بمأساته، فكان يُفضّل أن يناديكِ خالتي.

.نعم في البداية استغربت لم لا يناديني أمي؟ لكن عندما عرفت السبب عذرته.. لكن كلّما كان يناديني خالتي رزيقة كان قلبي يحترق لأن كلمة ماما غالية جدا يا ابني وتُحسِّس المرأة بأنها امرأة بل لا تكتمل المرأة إلا إذا أصبحت أُم.. ولكنها أحيانا تمقت اليوم الذي أصبحت فيه أم... ايه يا دنيا.. هيّا أخبرني أين هو عبد الرّحمن؟

.آه يا خيّو رُحت سافرت وتركتنا.. تركنا لحالنا لكنّه على الأقل تذكّرنا وودعنا وترك لنا هديّة نتذكره فيها.. فهناك أشخاص تسافر هكذا من دون أن تقول.. مِن دون أن تترك شيئا.. حتى عنوانا.. بل تترك لنا ذكريات تبقى فيها الذّاكرة في صراع دائم مع النسيان لنحافظ عليها...

.كيف يرحل هكذا؟ لِما لا يُراعي مشاعري أنا اشتقت إليه فعلا، ساعتين فقط جلس معي وذهب إلى شجرته كالعادة ...أنت أكيد تمزح معي... ابنته معي مستحيل أن يتركها فهي حياته أنا على ثقة أنك تمزح.

. ليتني كنت أمزح...ليتني كنت أكذب حتى. ليت الذي يحدث هو مجرد كابوس.. إنه سافر إلى الأبد.. سافر من دون رجعة. .لقد رحل.. رحل.. عبد الرحمن، مات إثر حادث مرور ليلة البارحة هو ودلال إثر اصطدام الشاحنة بهم... والسبب في ذلك ان سائق الشاحنة كان في حالة سُكر.. والله العظيم وحياة حبي لفلسطين وإخواني المُستشهدين، سأجعله يقضي بقية حياته في السجن جرّاء ما فعل.. سأحرق حياته مثلما أحرق حياة حياتي..

لقد رحل عبد الرحمن. .لقد تركني يا خالتي رزيقة قالها باختناق مُكملا لقد تركني ثانية وحدي أحِسّ بروحي جوفاء..

تصمت خالتي رزيقة جامدة لكن صمتها كان مُخيفا.. اصفرار وشحوب مفاجئ استطاع أن يطرد كل فرحة كل تفاؤل وكل أمل، بل إنه اقتلاع مفاجئ لجذور الأعماق، إنّها لا تقول شيئا، إنها لا ترد على غيث. غيث يتفاجأ في ردة فعلها أ هذا برود أم هو خبر غير قابل

للتصديق؟ أم هي صدمة شلّت الرّوح والجسد والمشاعر معا؟؟؟؟

يتقرّب غيث إليها، يقبّل جبينها، أنت من أسميتنا بالتوأمين واستضفتنا معك في هذا البيت الصغير الدافئ في الوقت الذي لم نجد فيه أي مأوى، وخاصة في الصيف حين تغلق الإقامة الجامعيّة، لا تخافي سنعيش معا ثانية لن ندعك أنا ورحيل الصغيرة ورحيل الكبيرة.. لقد قررت ان استقر هنا بالجزائر، سأكون بجانبك دوما.

عبد الرحمن أوصاني عليكِ و أوصاني أن أوصل لكِ سلاما وبلّغني أن أقول لكِ إنه يحبّك مثل أمّه التي لا طالما كان يراها فيكي وكان يقول لي أن هناك إحساس غريب يشدني إليها فعندما أبتعد أرجع إليها لأنني أموت شوقا حتى بتّ أشك أنّها أمّي.

هنا اشتدّ نفسها فأصبحت تتنفس بسرعة وغيث يترجّاها أن تقول شيئا ..أن تبكي.. أن تفعل أي شيء إلاّ أن تبقى صامتة هكذا.. يقبّلها ويحتضنها لعلّ الصمت يُطلق سراح سكوته أنا غيث يا «يُمة»، أنا عبد الرحمن ناديني اليوم فصاعدا عبد الرحمن فأنا وهو واحد.

الصمت يعلن الانفجار والمشاعر المصدومة باتت تستوعب ما سمعت فبدأت تذرف عيناها أمطارا.. تتنهد.. تحاول لمّ انهيارها المفاجئ بكلمات مرتعشة ابني.. ابني أود أن أراه ابني.. يتعالى صوتها ابني .. بل تصرخ «ابني» ... و بشدّة تعيدها «ابني».. لا.. لا.. تقف تقلّب المائدة وتنتقم من كل شيء أمامها.. إنه إعصار الأحاسيس المنتقمة من الخبر الموجع.

يحاول غيث تهدئتها فتصفعه لِما؟ لما لم تخبرني؟ لِم تركتني لا أراه؟ أن أتكلّم معه للمرّة الأخيرة؟ أن أقبّله؟.. أن أحتضنه بقوة؟.. حرام عليك.. حرام عليك.. لن أسامحك غيث لقد حرمتني من لقاء أخير مع ابني.. ابني.. لِما؟ لما لم تتصل بي ؟

تجلس على الأرض لأن قدماها فقدا كل قوتهما والضعف والانهيار أصبح ينتقم من جسدها رويدا رويدا، لتُكمل لومها وعتابها لغيث الذي وقف لا واعيا لكل ما يسمع.. ولِكل ما يحدث، لتردد على مسامعه لِم؟ لم لم تخبرني لعلي اطفئ نارفضوله بقولي له الحقيقة؟

يستوعب غيث كلامها الأخير، فيتساءل: عن أيّ حقيقة تفصِح؟ يجثو إليها قائلا: لم أستطع أن أتّصل بك لأن عبد الرّحمن قال: عدني ألاّ تتصّل بها لأنّها ستتأثّر كثيرا ولا أريد أن أصدمها مرتين حالة الحادث وشكلي المروع وموتي، إنها لا تتحمّل.. لا تقوى.. لا أود أن أكون سببا في حزنها وهي التي مسحت عني كل حزني..

تنفجر في وجهه بهستيريا كنت سأقول له إنه ابني.. كنت سأقول له إنه ابني.. ابني..

يحاول غيث تهدئتها من جديد لا أحد يشك بمحبتك لعبد الرحمن فأنت كنتِ له أما بمعنى الكلمة..

تنهض تمسكه من قميصه.. تفرغ فيه كل عصبيتها فجعلت غيث يتمايل منهارا روحيا وجسديا.. بل أنا أمّه.. أمّه الحقيقيّة أنا أمه.. أنا التي وضعته في الملجأ وأرجعته إلي مرة أخرى لأعوضه حرمان طفولته ولو بقليل.. فيشدها غيث إليه مُصدوما.. ما الذي يحصل؟..

تترك عناقه لتنهار تحت قدميه.. كنت أخاف لومه.. كنت أخشى من اتهاماته لي، كان يرضيني أنه بجنبي.. كنت أخاف أن يبتعد عني..

إنه ينتقم منّي.. إنه يعذّبني برحيله.. فتتمدّد على الأرض لتستقبل الإغماء خاضعة لاستبداده الكلي من دون مواجهة بل إنه استقبال في ذروة الاستسلام..

يستفيق غيث يناديها يا يُمه انهضي بالله عليكِ انهضي..

انهضي.. آه أنا لا أستطيع أن أعي ما يجري.

لكنّها لا تستفيق... يحملها منهكا لثقل وزنها على جناح السرعة إلى سيارته يدخلها فيغلق الباب فيحرك المحرك كبداية للانطلاق للمستشفى لكن صوت عبد الرحمن يهمس في أذنه رحيل أمانة في رقبتك.. أمانة...أمانة.. يفتح غيث السيارة يرجع للمنزل يحمل رحيل ليجلسها جنبه معاتبا نفسه كيف نسيت رحيل كيف ؟كيف ؟ كيف؟

في هذه الأثناء تستفيق رحيل فلا تجد أحد.. فتتذكّر كلّ ما حصل بالتّفاصيل الخانقة، فيسألها خيالها في محاولة للاطمئنان عليها: هل أنت بخير؟ تضحك بهستيرية، وتجيبه بسخرية: أنا بخير.. أنا على قيد الوفاة، أنا لست بخير، لكنني لا أريد أن أبقى هنا.. أكاد أختنق.. رائحة الموت هنا.. تدغدغ أنفاسي.. إنني أختنق هنا.. سأموت هنا.. عطرها الأسود هنا بقربي.. تشدني إليها.. إنها تقترب أكثر.. فأكثر.. فأكثر.. إنني أختنق.. إن مشاعري تنتحر.. تتعصّب فتقطع صلتها بالأجهزة تتلفت يمينا وشمالا، تفتح تلك الخزانة الموجودة بقربها فتجد ملابسها فتبتسم لوجودها، تلبس بسرعة.. تخرج بحذر حتى لا يراها أحد.

السماء أصبحت تذرف ثلوجا بعدما كانت تبكي مطرا.. لقد توفيّت الطّبيعة و ارتدت كفنها اليوم إنه يوم للموت.. أجل يوم للموت...

رحيل بالكاد تستطيع أن تمشي بل إنها تتمايل و الثلج بدل إن يُساعدها كان غيورا من سواد شعرها فيصبغه بالأبيض، بل إنه أهداها كفنا مؤقتا لكنه كان قاسيا باردا.. إنّها لا تحسّ بأي شيء المهم أن تصل إلى وجهتها.. بل إنها كانت تردّد جملة واحدة طول الطريق الذي مضت عليه نصف ساعة تقريبا، فتبكي تارة وتبتسم تارة أخرى.. إنها الدّموع تبتسم بلهيبها المحترق.. تردّد بهمس بالكاد يُفهم..

كل كلمة
كل حرف
كل نقطة رسمت المعنى
تبكي اشتياقا لم يجد له المرسى
أين أنت؟
لم رحلت؟
فأنا سواد الحزن اكتحلت
فهل وصلت رسالتي
أم أنك قرأتها بعد أن مت
إنه ينتظرني تحت الشجرة.. إنه في الحديقة.. إنه ينتظرني..
لا تذهب.. أنا آتية.. أنا آتية.. أنا آتية..
تتنهد تلتفت يمينا وشمالا تهمس لخيالها من جديد
تلك الغيمة السوداء لا تزال تُرافقني
ربما همُّها قتلي بقدر ما همّي خنقُها
أخذت كل شيء
في زمن لا يُقدّر فيه شيء
فما عساي انتظر شيء
فالانتظار طعمه مُر
والحظ الأسود أصبح لا يهم
لأنه في النهاية
كل شيء في النهاية يُقدر بلا شيء

تصل للحديقة تُقابلها الشجرة وهي الأخرى مُرتدية كفنها الأبيض...

تردّد ....
هنيئا لكم شراب عذابي....
فقد أصبح العذاب حلو مذاقه عندي...

إنها تُحسّ بالدِّفء باحتمائها بنار الذكريات.. بل إنها نار تحرق قلبها فيزداد اشتعالا واحتراقا دون أن يصبح رمادا.. فأي نوع هي هذه النار؟

ها هي تبتسم من جديد فضحكة عبد الرّحمن تملأ شتاء قلبها ربيع.. لكن سرعان ما تُمطر عيناها من جديد.. كم كُنا سعداء.. لماذا يرحل؟ لِم ترك هذه الشجرة قبل أن آتي.. لم.. لم ينتظرني؟ لِم يأتي ليرحل..؟ لم رجع أصلا؟

هنيئا لكم شراب عذابي....
فقد أصبح العذاب حلو مذاقه عندي...
بل إنه مرمر...

أجل.. أجل.. أجل
أعلنت انهزامي واستسلامي
هنيئا لكم الراحة في عذابي
وارتووا.. ارتووا دموعا واستمتعوا بالمذاق
أجل.. أجل.. أجل
تفضلوا
اجلسوا على مائدة أحزاني
وابتسموا فقد قربت هدية وفاتي
هنيئا لكم شراب عذابي..
فقد أصبح العذاب حلو مذاقه عندي..

الحمد لله إنه يوم جمعة والنّاس بالمسجد.. فكيف لهم أن يتركوا هذه الوردة دون إزعاج أو غزل..؟ حتّى الثّلج اغتنم فرصة انفراده بها ليداعبها تحت الشّجرة.. فيذوب خجلا من عناقها..

إنها بين الوعي واللاوعي تتقبّل الواقع ولا تتقبّل.. بل تستنجد بالخيال ليطلق سراح الأوهام من جديد.. إنه سيأتي أليس كذلك لقد قال لي هذا: سنلتقي غدا.. أجل غدا.. إنه يفي بوعده دوما.. سأبقى هنا حتى يأتي.. لن أبرح مكاني.. أجل سأنتظره.. لن أبرح مكاني.

إنها لا تقوى.. لا تتحمّل.. فتعيد فتكرّر. .تبكي.. فتبتسم..
هنيئا لكم شراب عذابي.. فتبكي
فقد أصبح العذاب حلو مذاقه عندي.. فتبتسم..
إنه ابتسام الدموع القاتل يبتسم..

تجلس بل ترمي جسدها كاملا على ذلك الفراش الأبيض.. تُعانق الشّجرة كما يعانق الجّنين رحم أمه فتلتف حولها وكأنها خائفة من أن ترحل هي الأخرى أو أن تهجرها كما هجرها الكل..

وكأن الثلج صار مُشفقا خائفا عليها.. فاهتم بحمايتها بتغطيتها لعلّها تنعم بدفء برده.. لكنّها تهمس من جديد باكية لخيالها الحزين..

طريق مشيتها حافية..
وصلت الي أرضي فوجدتها قاحلة..
وصلت إلى شجرتي فوجدتها ميتة..

في هذه الأثناء كان غيث في المستشفى مع خالتي رزيقة التي هدأت حالتها نوعا ما بعد حقنها بمهدئ وهي الآن في سُبات عميق.. رحيل الصغيرة في حضن غيث تحاول عبره أن تجد تشابها من أبيها يشدّها إليه فتجعل من حضنه لها سريرا، مقررا أخذها معه إلى رحيل لعلّها عندما تراها ستهدأ نوعا ما..

إنه يصعد السلالم و إحساس غريب يتملكه وكأنها ابنته من رحيل، غيث يتوقف فجأة.. يا إلهي لقد نسيت ابني عبد الرحمن.. سأتصل بمربيته لاحقا لأطمئن عليه فكيف له أن يراني في هذه الحالة المزرية؟

أسئلة كثيرة تتنافس لتطرح نفسها هي الأولى.. لكن أوّل الأسئلة كيف ستكون ردّة فعل رحيل بهذه الصغيرة؟ كيف حالها يا ترى؟ اقتربت جنازة عبد الرحمن إنّها بعد صلاة العصر و أكيد أنها ترغب بحضور جنازته...يطرق الباب فيفتحه فتجد عيناه جوابا ... إن السرير فارغ.. يتساءل أين هي رحيل؟ لربّما هي بالحمام.. ينادي رحيل.. رحيل لا أحد يجيب.

في لحظة أصبح غيث غير غيث بل صار كالمجنون وبدأ يصرخ فاستفاقت رحيل الصغيرة فزعة و بدأت بالبكاء، يأتي بسرعة الأطباء والممرضون.. يبحثون.. فلا يجدون حتى طيفها.

ما هذا الإهمال الذي تكتسيه المشافي فأصبحت مدافن؟؟

غيث يحاكي نفسه فيحاول أن يكون هي ليفكر أن تكون؟.. إنها هربت.. أجل.. أعرفها عنيدة..

ثم يصرخ بشدة: لكن أنتم ستتحملون عواقب ما سيحدث.. أقسم بالله أنكم ستدفعون الثمن غاليا...

يصمت غيث ويحاول إسكات الصغيرة برفق بتقبيلها.. ثم يسرح وكأن فكرة قطعت كل ذلك اللوم والعتاب والصراخ فجأة... وبعد مناقشتها يرجع ليصرخ من جديد.. أجل أعرف أين هي.. إنها اكيد هناك...تتوسل استعادة الذكريات.. أجل لابد أنها هناك.. أجل هناك.. سأعثر عليها..

يحتضن رحيل الصغيرة من جديد.. ينزل بسرعة السّلالم.. فيخرج من المستشفى فيجد سيارته المتعبة والمنهكة بمشاويره لكن وفية بانتظاره، وقبل أن يدخل اشتري لرحيل بعض من الحلوى التي كانت كافية لإسكاتها ..فينطلق إلى منزله فيصل سريعا يحاول ان يفتح الباب لكن يخاف ان يجد عبد الرحمن بانتظاره فيطرق الباب فتأتي

المربية لفتحه فتسأله: هل أضعت المفتاح؟ ما بك يا بني؟ عبد الرحمن لم يكف على السؤال عنك؟

ثم تحتار فتسأله مرة أخرى أسئلة متتالية لا تترك مساحة للإجابة: هل تشاجرت مع أحد؟ من هذه الطفلة؟ أدخل لقد عملت الكسكسي إلي تحبو بالدجاج الله الله..

يصمت ...يقبل رحيل.. يحدثها بهدوء هنا ستجدين أخاك الصغير امرحا والعبا معا، يعطيها للمربية ذات الوجه السموح، اهتمي بها، سأرجع في الليل.. يرجع سريعا إلى سيارته ويترك المربية حولها ألف علامة استفهام وتعجّب، مرددة ربي يحفظك ويبعد عليك ولاد لحرام يا ولدي.

قرب وصول غيث.. واشتد تسارع خفقان قلبه.. ماذا لو لم أجدها..؟ ماذا لو.....لا.. أكاد أجن يا إلهـي !

رحيل يا غاليه، لا تفعليها، إنها الشجرة، أكيد أنها هناك، أجل هناك، يصل، ينزل... فالحديقة كلها بياض، لم ينتبه بالكومة الموجدة أسفل الشجرة من دون ملامح..

يصعق غيث.. يا الله أين هي؟ إنها ليست هنا.. ليست هنا

يقترب أكثر من الشجرة...يزيد اقترابا أكثر فاكثر.....ينصدم يا الهي إنها ليست هنا

لا يوجد شيء..

رحيل ليست هنا.. ليست هنا..

يضرب الشجرة بكفّه.. معاتبا. .لِما أنت صامتة قولي لي أين هي؟ أين هي رحيل؟

لا يعلم أن بينه وبينها شبر...شبر.. شبر.. شبر، فهل يستطيع هذا الشبر أن يتحول إلى مسافات بعيدة أم سيصبح أقل من شبر؟

يبتعد يود الذهاب.. فيزداد خفقان قلبه.. يقترب فيزداد أكثر.. فيستمع لهمس يصدر تحت الشجرة فظن للحظة أن الشجرة تتكلم بأنين مرتجفة..

طريق مشيتها حافية
وصلت إلى أرضي فوجدتها قاحلة
وصلت إلى شجرتي فوجدتها ميته

فيهتز قلب غيث مرة واحدة يرتجف جسده كله ينتفض.. يا ربي إنها رحيل.. رحيل ..

ينظر أسفل الشجرة فيلاحظ يدها تصافح الثلج جامدة... فينتقم منه فيصفعه الصفعة تلوى الأخرى فيبتعد باكيا بعيدا يعانق الذوبان.. ليجدها بصورة زرقاء.. يهلعه منظرها.. فيرتعب.. حتى ظنّ للحظة أن أنفاسها شدت الرحيل لولا كلماتها من جديد

هنيئا لكم شراب عذابي.
فقد أصبح العذاب حلو مذاقه عندي...
طريق مشيتها حافية
وصلت إلى أرضي فوجدتها قاحلة
وصلت إلى شجرتي فوجدتها ميته

دموع غيث أغرقت عيناه فأصبح لا يدرك أين وضع سيارته وهي أمامه.. احتضنها بشدة.. متوسلا إيّاها.. لعله يستطيع تدفئتها وهي تحت معطفه الطويل الأسود كطفل صغير إلى حضن أبيه يحتمي.. وهو يصرخ قائلا

تحملي يا عمري. .»يا عيوني إنتي..» تحمّلي.. فينتبه لسيارته السوداء التّي قربت أن تنطق لتقول له أنا هنا.. أنا هنا أدخلها بسرعة..

أعرف أن وجودي كان بكفن أسود.. لكن بإمكاننا أن نجعل

الكفن روح تدبّ فيه الحياة من جديد، فاللون الأبيض يرسم ملامح الموت وثوب زفاف الحياة

وصل من جديد غيث للمستشفى فالكل في يوم وليلة أصبح يعرفه بمجرد وصوله تسارع الجميع لينقلوا رحيل من جديد إلى العناية المركزة..

بقي غيث ينتظر خبرا يروي عطش خوفه على الحبيبة التي ظلت لسنوات تتربع على عرش قلبه والذي فعل من أجلها كل هذا.. لا يمكن أن ترحل هكذا وترميني للضياع وللانهيار لباقي العمر..

ممرضون داخلون وخارجون.. أطباء يتهامسون.. كل هذا يزيد من هلع غيث فيتذكر لحظات البارحة عبد الرحمن.. دلال.. فيتساءل بل إن الروح تتصارع مع العقل والذاكرة: لِما عندما أكون يحضر الموت؟ أم أن الموت اسم اقترن بالفلسطيني فهل هما من رحم واحد؟؟؟
لا.. خذني أنا.. خذني أنا أيها الموت هذه المرة ودع لي رحيلي حياة لرحيل..

حواره الصامت وجِداله الوجداني انقطع مع مشاهدته طبيبا مارا خرج من غرفة رحيل فيسرع إليه يستوقفه يسأله بلهفة بخوف برجفة: بالله عليك خبّرني ما الذي يجري...؟؟؟

فيُجيبه بنبرة يحاول فيها دمج المستحيل بأمل يرغب بالحياة: نحتاج لمعجزة.. أدعو ربك... إنها جلطة قلبية حادة.. نرجو أن تمر هذه الليلة على خير علينا أن نتفاءل فكل شيء بإذن الله.. ويرحل..

يرحل الطبيب تاركا غيث يسقط على ركبتيه.. جلطة قلبية..؟ جلطة.. آه يا قلبي..

يخرج طبيب آخر من غرفة رحيل فيجد غيث مصدوما يتأسف مشفقا عليه، فيساعده على الوقوف فهو لا يدري أي حظ هذا الذي يقف بجواره و هو الذي شهد على حالة عبد الرحمن ودلال ورحيل وخالتي رزيقة.

يشد على كتفه ويقول له: صبر جميل وبالله المستعان.. ما ابتلى الله عبدا إلا أحبه.. سأظل بجانبها الليلة لا تخف وأيّ شيء سيحصل سأتصل بك.. اذهب لترتاح.. استحم وصلي وأدعو لها.. تحتاج للدعاء والدعاء كفيل بأن يغيّر مجرى القدر.

يرد غيث : أرتاح..؟ كيف لي أن ارتاح؟ سأذهب لجنازة أخي عبد الرحمن؟.. قالها و وجهه محمر في اسوداد تغسله الدموع بجمرها اللاذع..

يرجع غيث للبيت بسرعة متعب مجمد العقل في حالة صدمة فلا يكاد يستوعب حتى يغمى على الوعي.. يذهب مباشرة إلى الحمام في محاولة منه للاستيعاب.. لإنعاش أعصابه..

يستحم ويبدّل ملابسه بسرعة ليذهب إلى المسجد ليصلى على جثمان عبد الرحمن وبعدها إلى المقبرة فلا رحيل ولا خالتي رزيقة ستراه النظرة الأخيرة إلا أنا إلا أنا وهو رحل.. رحل تركني لوحدي هنا

كم هو قاس ذلك القبر! وكم هو مميت ذلك التراب وهو يُمطر على صاحبي فيقتلني ويمزقني عندما يصبح الموجود في اللاوجود...

في هذه الأثناء يعود شريط غيث لغزة.. فغزة لا تزال تبكي.. وها أنا مقيد بالأحزان حتى وأنا بعيد عنك يا غزة.. يتذكر مشاهد الموت يتذكر كل من أخذهم الموت..

ينهار غيث عند قبر عبد الرحمن فيجهش بالبكاء بصوت عالي.. يمنعوه.. يحاولون تهدئته... لكنه يرفض.. ويصرخ قائلا: إن جزءا مني

داخله.. إن جزءا مني داخله.. لا تقبروني بالله عليكم كفى.. كفى ..

يُغمى علي غيث.. وصارفي اللاوعي.. لكن سرعان ما تغلب عليه برشة ماء.. لينتهي كل شيء ليرجع مجددا إلى البيت... يستلقي على السرير.. من دون أن يصارع النعاس.. يستسلم ليقتحمه النوم آخذا إياه في محاولة منه أن يجعله يرتاح.. لكن الكوابيس أبت غير ذلك، فتلك الصور، وتلك الأحداث تصرّ أن تحتل الوعي واللاوعي وتطرد الأحلام لتستولي على ليلته و تنتهك حرمة نومه وتغتصب راحته دون رحمة ولا شفقه بل أصرّت أن تبقى بجانبه الليل بطوله حتى الصباح لينهض فزعا خائفا مُدركا الحقيقة التي تمنّت أن يكون كل شيء خيال ووهم يعبث به كابوس أحمق، غايته أن يتجرع الآخرون الألم بذوق الفزع برفقة الخوف والرعب...

لبس غيث بسرعة بعد حمام سريع خفيف استطاعت فيه قطرات المياه الدافئة أن تهدئ أعصابه بلمساتها الحنونة التي سرعان ما تسقط خجلا و حياء بعد ملامسته ...

يصل غيث إلى المستشفى الذي ملّ من زياراته المتكرّرة فأصبح ضيفا ثقيلا عليه..

يصعد السّلالم التي ضجرت من كثرت ما تحمّلت أرجلا وقحة لا تستحي أن توقظها في الصباح الباكر..

يلتقي بالطبيب وهو خارج من غرفتها مبتسم يبدو أن هناك أخبار سارة يتّجه نحوه بسرعة طمئني عليها؟ هل استفاقت؟ فيرد عليه بابتسامة أخرى أجل استفاقت الحمد لله زالت مرحلة الخطر لكنها الآن نائمة تُهلوس أحيانا ببعض الكلمات..

تفضّل اطمئن عليها..

. الحمد لله شكرا يا رب أشكرك يا رب.. رحمتني وأنت خير الراحمين.. أكيد سأراها..

يدخل يقترب شيئا فشيئا حتى ينحني للسرير فيمسك يدها الناعمة قائلا: اهدئي يا صغيرتي.. نامي يا حبيبتي.. ارتاحي فقط.. حينها فقط سأرتاح.. سأرتاح..

وكأنها تسمع ما يقول فتتمتم بكلمات متقطعة...

كيف سأنام هادئة؟

وسريري بحر و موج..

كيف سأنام هادئة؟

وسريري بحر و موج..

سيهدأ هذا الموج العنيد سيهدأ.. نعم سيهدأ.. قالها ثم ابتسم و أكمل كلامه في همس: حتى في هلوستك تُبدعين..

يغتنم الفرصة وهي هكذا عادة الرجال ليختطف قبلة بريئة يضعها على جبينها ليهمس من جديد: «ربي يخليلي ياكي يا عيوني انتي»

لكن روحها لا تظل في عالمها الخاص وهلوستها المبدعة تسترق من مستودع الماضي كلمات ضائعة تُصرّأن تنثرها من جديد لعلها تبقى حاضرة في ذهن المستقبل

أعشق المطر حين ينتحر
فأنتظر
جثته مستسلمة للقدر
فترى أنينه يقبل أذني لينتقم
وتراني أنا
مستسلمة لانهياره فأختنق

يقترب غيث أكثر فيتأثر، وقبل أن يكمل تأثره تزيده تأثرا بكلمات متقطعة لكنها ترسم المعنى على شفاه ذاكرة رافضة أن تبتسم مرة

أخرى.

نصعد سلم الأحزان منذ ولادتنا
فنغسل الجراح بدموع آلامنا
نصعد.. فنتفاءل بغد أفضل
فترى آلام تتفاقم
وبنا لا أحد يحس
أو يتظاهرون بالإحساس
يعطونك فتوى لتجدد الآمال
بالجراح يستهزؤون
بل يستهترون
ليت نصائحهم يأخذون
ويتركون حقائب النفاق
عند سلالمي
فغادروا حياتنا من سُكات
فالأقبح أن تتشبهوا بصورة الملاك
وكلكم أخطاء
وكلكم أخطاء

يحاول غيث أن يضغط على يدها، التي أصبح الاصفراروالزرقة محتلة نهائيا بياض ونصاعة يدها الجميلة، لكنها لا تشعر بشي، بل ظلّ الهذيان متخفّيا في ذاكرتها ليصل خيالها الشارد مرحلة الابداع، لتواصل القول:

ابكي ولا تمل
فخمر الأحزان مني قد ثمل
والفرح من دكانك انسحب
مزّقت جواز السفر

وسجنت الرحيل لكي لا يرحل
فلتصمت
وابكيني بصمت لا يرحم
فأنا عبد خُلق حرّليُقيّد
أنا عبد خلق حرليقيّد
أجل.. حرليقيّد

هذه الكلمات الأخيرة سمحت لعيون غيث الحادة الواسعة الجميلة أن تجعل دموعه تعلن السقوط دفعة واحدة ليردد بعدها
أنا عبد خلق حرليقيّد
حرليقيّد.. وليكمل على ما قالت:

تنفسي أيتها الروح هواء نقيا
بعيدا عن لوث النفوس الضائعة
فأحيانا نصدق مجرد أقنعة
فجأة
تسقط الاقنعة
وما يتبقى سوى
ذكرى ميتة

مرّت عشرة الأيّام وكأنّها سنين كان فيها غيث لا يفرّق فيها بين الليل والنهار، فلم يكن ملك نفسه ولا لثانية بل كانا جفناه محمرّان منتفخان والهالات السوداء تسرق من جمال عيناه سحرها، فتكشف تعبه النفسي والجسدي، فقد كان كالطّير تارة إلى رحيل وتارة أخرى إلى خالتي رزيقة و رحيل الصغيرة هذه الدوامة من الأحداث المتسلسلة أنسته حتى ابنه عبد الرحمن.

غيث كان كورقة خريف تمكنت منها الرياح فسيطرت عليها سيطرة تامة، فأعطته الفرصة لأخذها وردّها كيفما شاءت...

جاء موعد خروج رحيل من المستشفى بعد خروج خالتي رزيقة بخمسة أيام قبلها وهي الآن بصحبة رحيل وعبد الرحمن.. ستكون هي الأخرى بصحبتهم هي وغيث..

رحيل لا تزال شاحبة الاصفرار يرفض مغادرتها أو التخلّي عنها، فلا يبرح مكانه ولو حتى في لحظة خروجها.. يُعينها غيث على المشي يوصلها إلى السيارة بشوش الوجه بل إنه فرح لدرجة أن الفرح لا يقوى على فرحه فرحيل ذاهبة معه إلى بيت خالتي رزيقة إنه أيضا بيته.

وصل غيث بسرعة إلى منزل خالتي رزيقة التي تموت شوقا وانتظارا لاستقبالهم فهم من رائحة عبد الرحمن.

يدق الباب.. تُسرع لتفتحه وخطوات رحيل الصغيرة تسبقها فتبتسم حين تراها وتحزن.. تفتح الباب، تُسلّم عليهم.. لكن سلام رحيل كان باهتا جافا... فهي اكتفت أن تحمل رحيل الصغيرة متفاجئة ساكتة ليقرر بعدها صمتها أن يسأل: أين ستكون غرفتي إذا أمكن؟

ينظر غيث إلى خالتي رزيقة وكأنه يقول لها: دعي الكلام جانبا

ولبّي نداءها لتردّ مباشرة: تعالي معي يا ابنتي.. تُريها الغرفة ترحّب بها... تُحاول ان تأخذ منها رحيل الصغيرة لكي ترتاح... لكنها ترفض وتقول بخوف.. شكرا لا داعي لذلك وكأنه الخوف يجبرها على الخوف من أن تضيع هي الأخرى منها..

تخرج خالتي رزيقة لتتركها، لتحس رحيل بعدها براحة مطلقة لتنهار شجاعتها المصطنعة في المواجهة فتقع على ركبتيها، تشمّ رائحة الصغيرة التي كانت بدورها تتأمّل فقط وتنظر إليها لتقرر بعدها أن تسألها: كنت مع بابا؟

كان سؤالها بنبرة الاشتياق الطفولي كافيا للدمع أن ينهمر، تحاول أن تمسحه لكنه أصيب بالتمرد، فلم تجد لنفسها مظلّة واقية للأجفان التي تعاني الاحمرار من مطر البكاء.. لكن سرعان ما امتلكت نفسها لتجيبها: أجل كنت معه لكنه.. «هو الآن مسافر وصّاني أن اهتم بك وإذا بقيتي عاقلة يجيبلك هدية مليحة»، قبّلتها بشدة تشم رائحتها من جديد لتغني لها بتلقائية..

غدوة نروحو لبابا..
نهزو معأنا الكابا..
نسمعو الرحابة..
و نقولوا نحبك بابا..

تنفجر بالبكاء مجددا...لتسألها بصوت خافت: عجباتك الأغنية؟ لكنها لا تجيب.. إنها في نوم عميق.. هذا دليل على أن الاغنية كانت كمفعول سحري استطاع فيه أن يُرضخ النوم لاستفزاز النعاس.

تنهض رحيل برفق لتضعها على السرير تُغطيها تقبلها قبلة حارة على جبينها تستدير

فتقابلها المرآة..
تتأمّل نفسها في المرآة
فتجد الملامح مختلفة
والروح غائبة
فشكت أنها ليست هي
فما بال تلك المرآة
أتحب الكذب كالرجال
أم هي محتالة كالنساء؟
سكتت.. وهمست..
كلنا نقاط..
وشتان بين نقطة و أخرى
فما عساني أكون نقاط تنتظر إكمال المعنى
أو أنا نقاط لحروف تتوسل العودة
أم أنا نقطة النهاية لشخصية غامضة
تقرأ الكلمات والمعاني من دون حاجة للنقطة

تقوم عيونها بجولة في البيت، فتستوعب ذاكرتها أنها في غرفة عبد الرحمن فتهمس لخيالها المكتئب

كان هـنا
شيء جـميل واختفى
أيا تـرى
أيــن هو؟
أم هو الزمن عندما مضى
تركه هناك و مضى
أو هي صفحة أخرى تُطوى

تضحك بعدها بهستيرية فيسمع غيث ضحكة باكية فيذهب إليها ليدق الباب، لكنها لا تجيب مرة ومرتين ثلاثة بل مع كل طرق يتعالى

الضحك، فأصبح لا يهمه الرد فدخل فوجدها أمام المرآة جاثية باكية ضاحكة يذهب إليها محاولا إيقافها تمنعه بقولها: أتظنني جننت؟؟

نشعر بضحك هستيري
حين نتكلم لفترة طويلة
وغيرنا يستمع لنا لفترة طويلة
و فجأة عندما يتكلمون
نعرف حينها أننا كنا نتكلم مع أنفسنا
وعشنا مع صمتهم أكذوبة فهمنا لمدة طويلة..

أحيانا يا غيث أود خنق كل حرف، كل كلمة، كل نقطة لأنها لا تعبر عني وأحيانا أسجد للكلمة لأنها تنال مني وأحيانا أحرق كل شيء لأنه يدل عني..

.أنا معكِ رحيل بإذن الله سنتجاوز كل المحن..
.كم هي جميلة التضحية
ولكن جمالها البشع
حين تضحي بكل شيء
ولا تجد بعدها أي شيء
.أنا موجود هنا لأعوضكِ على كل شيء
.لا تقلق غيث

أحيانا يكون انهيار الدموع ليس ضعف امرأة
بل هو قتل لمرحلة في حياتها تنهمر مع انهيار تلك الدموع

.يبقى دوما نصفنا الآخر لنا
لأننا وجهان مختلفان لوحدة واحدة اسمها الأنا
.يسخر مني الشـتاء
وتقترب الأنا للعـودة
وإنني أسمع نحيب البـكاء
ينادي للمـودة

وتراها دموع المطر
تأخذ عيناي للنظر
وتراني أنا
لغز آخر للأنا
.ارتاحي رحيل
.وهل الرحيل يرتاح.. اشتاق لمربيتي مليكة..
.الرحيل أحيانا يرسم ملامح الموت وأحايينا أخرى يرسم معالم الحياة..
.أنا التي نام الزمان على كتفي، وغازل القمر خدي، وتجاهلت الشمس ردي، ونسى الجميع ودي، أنا الكبرياء والبراءة وسحر السماء، أنا التي لا تجرؤ الكلمات على ردي.. وحين أعلن رفضي.. ينحني الجميع لطلبي، لكنه تحداني وأمامي واجهني، وأنا العجز يمتلكني يقيدني فجعلني بلا حراك، كان يقبل شفتيها وهي تلفظ الشهادة، يداعب جسدا انهكه التعب لسنين طويلة، لكنها كانت ترد بابتسامة جميلة، بادرت بالترجي أن يتركها فلم يقبل النصيحة، فقالت دعيه إنني الآن مرتاحة ليس موتي بالفضيحة..
.الموت رحمة أحيانا يا رحيل يحتاجون منا الدعاء فلبي هذا الاحتياج..
.هناك شر بداخلنا
ليس لنا بل هو لغيرنا
غريب أن ينسبوا الشر لنا
و النقاء لغيرنا
.اصبري.. اصبري.. اصبري رحيل
.من يحفر لي قبري؟
فالصبر أصبح يُصَبِر صبري
اصبري.. اصبري.. اصبري

كفى فأنت عاجز عن صبري
ماذا بعد؟
أهديتهم تمرا وسقيتهم لبنا
زرعت لهم نخلة وأهديتهم خيمة
واستقبلتهم ببسمة
فكانوا لي وباء
عزلوني في بيداء
واهدوني سم الأفاعي والأقارب على الميلان
ماذا بعد؟
اصبري.. اصبري.. اصبري

. افهم ذلك رحيل سأبحث واجد لك أمك الحقيقيّة أعدك بذلك..

. بت أحس أكثر بمعاناة عبد الرحمن حين قال ذات يوم أمام الملأ، فخجل الجميع من أنفسهم من خلال كلامه ومن يومها أصبح الكل يحترمه رغم أنفهم المعوج..

أنا لم أخطئ وليس ذنبي بل ذنبهم..
لم نظراتهم لي مشبعة بالإهانة؟
أم لفتتهم ثيابي الممزقة..
لا بل يصفون روحي بالملوثة
وأنا أشبه الملائكة
هكذا أنا خلقت بلا هوية
ليس لي اسم أو بطاقة شخصية
من عساه يكون أبي ومن عساها تكون أمي؟
أهي فقيرة أم غنية؟
وهو هل هو حي أم زارته المنية؟

ليتني أراكما نظرة وحيدة
لكنتما قدرتما حجم الخطيئة
أعلم جيدا أنني أشرف من اسميكما ولو كنتم حلالا وأنا اللقيطَ

. رحيل أيتها الغالية، يجب ألا تفكّري الآن بشيء سوى بالنوم، ستحضر لكي خالتي رزيقة الأكل وبعدها تناولي الدواء الذي سيعطيكِ نوعا من الهدوء الروحي حتى ولو كان كاذبا أنت بحاجة إليه

. حاضر غيث اتعبتك معي لكن قبل هذا أود أن أسألك هل اتصلت بي أمي أم هي الأخرى نستني أو أنساها وائل اسمي؟؟ كيف لها ألا تسأل علي و أنا كنت على موعد مع الموت أم هي الأخرى ليست على ما يُرام؟؟

. لا تلوميها رحيل هي الأخرى كانت مريضة في الفراش بالكاد استطاعت أن تستوعب ما حدث اتصلت بها وطمأنتها ولم أقل لها أنك في المستشفى، أخبرتها أننا في سفر وحين العودة نتصل بك، يجب أن ترتاحي جيدا لتراكِ بأفضل حال..

. أمي المسكينة، داء السكر من جهة ووائل من جهة و أنا من جهة كم أشتاق إليها..
. سأحضرها لكِ طلباتك أوامر يا غالية..

تبتسم رحيل ابتسامة خجولة لتقول: أريد أن آكل الآن..

يخرج غيث من الغرفة لتتأمل رحيل نفسها مجددا في المرآة تنظر إلى الغيمة السوداء التي احتلت عينيها وتردّد مجددا:
ماذا يفعل الحزن بالإنسان إنه كمجرم خفي يقتل بضمير ويتمتع بالحرية مهما علم بوجوده الجميع، قبل أن تكمل حوارها السري مع خيالها يطرق الباب من جديد ليأتي غيث..

.كم أنت سريع يا غيث

.بل أنا نشيط.. كلي جيدا، لأنه غدا لدي لكي مفاجأة جميلة ولا تنسي أنني مدير عملك سوف أرهقكِ .

.«يا شومي» .. أ هذه مفاجئة أم مُفاجعة؟؟

.أعرف أنك لستِ صبورة مثلي، يقتلكِ الفضول إذا دنا قربكِ.. غدا مساء هناك ملتقى أدبي سيحضره كاتب تحبينه كثيرا وستلقين شيئا من كلماتك المتميزة على مسامعه لتسمعي نقده وأنا أكيد، إنه سيقع في شباك غرام أسلوبك..

.كل هذا وأردت ألا تقول لي .. سأبتعد على الحزن لأنني سأجعله مُلتقى مُبتكى ،هجاء خفيف لا غير..

.يا يُمّه قالت خفيف قال.. رحيل، هل آخذ رحيل الصغيرة تنام عند خالتي رزيقة..

.لا أرجوك اتركها معي..

. لا تخافي لا أحد يجرؤ أن يأخذها منكِ. .حتى أنها تشبهكِ ، أتريد مني شيء أنا راجع لبيتي أشتاق لعبد الرحمن لقد أهملت الصغير وانشغلت بالكبيرة .

. تضحك رحيل لتتمنى له واقعا أجمل.. «ربي يحفظهولك ان شاء الله جيبو معاك غدوة»

.تُصبحين على واقع أحسن..

يستيقظ الصباح مبلّلا ثوب الشتاء بصراخ رحيل الصغيرة لتستيقظ رحيل : أنا هنا يا ماما

ليستمر عبد الرحمن الصغير في البكاء بابا.. بابا.. أريد بابا.. بابا.. قولي لي ماذا تريدين وأنا أطلب منه أن يأتي من السفر.. لقد أتاني في الحلم وقبلني كثيرا وذهب وتركني معكِ ناديته أن يرجع لكنه رحل هناك.. تحتضنها بقوة فتحس ببعض البلل فتقول لها يا شقية ماذا فعلت؟؟ في محاولة لجعلها تنسى البكاء الذي سببه الاشتياق فتخجل فتدغدغها فيتحوّل البكاء ضحك ولعب.

تأتي خالتي رزيقة: «صباحكم بالخير ربي يدوّمها فرحة ان شاء الله رقدتي لابأس يا بنتي؟» دعيني أُغير لها ملابسها و اهتم بتغذيتها و أنت أيضا اذهبي للاستحمام، أم أنت أيضا فعلتها مثل رحيل الصغيرة أنظري إلى ملابسكِ.

. لا لقد نامت بقربي، آه يا خالتي آه والله أضحكتني، سامحيني البارحة لم أكن بخير عاملتك بحدة وجفاء.

. لا عليكِ يا ابنتي أتفهّم الوضع يلا للاستحمام.. «كي تخلصي نفطروو كلنا مع بعض»

. أين غيث ؟

. إنه في بيته لقد تاه في أحوالنا ونسي ابنه عبد الرحمن، قال أنه سيحضره في المساء لكي يلعب مع رحيل

و يأخذكِ للملتقى...

. أجل هو كذلك استأذنك الآن..

يمرّ الوقت بسرعة لتكون فيه رحيل من جديد كربيع انتقم لغرور الشتاء ببكائه، لتزهر بالسواد لقد ارتدت سروالا ومعطفا قصيرا ضيقا وحذاء أنيق بكعب عالي، واهتمت برفع كل شعرها لتختال كل ملامح بإبراز جمالها فبراءتها وسواد عيونها وشعرها الطويل الناعم

الملمس والمنظر اتحد مع سواد الثياب، فأنجب ليلا بصورة بشر نزل من السماء ليحتل الأرض.

إنه صوت سيارة تتوقف أمام البيت أكيد أنه غيث، أجل إنه هو الباب يدق تذهب مسرعة لتفتح الباب

فيقف غيث متسمرا في مكانه تنتظر منه الدخول، فلا يدخل إنه يهيم في جمالها البريء فتبتسم و تسأله باستحياء: ما بك غيث؟ ما بالك؟

.يبدو أن هذا المساء سيكون مثيرا، ليتدخل طفل صغير من وراء رجليه «خلّيوني نفوت ومن بعد أتفاهمو»

. تنتبه رحيل للطفل الصغير فتموت ضحكا، أكيد إنه عبد الرحمن تحمله فتقبّله بقوة فيقول لها «زيديني قبلا زيديني» فتزداد ضحكا ومع كل ضحكة يشرق بدر الروح في الضياء، «لكن لمّن تخرج؟؟ لباباك وعمك عبد الرحمن..؟»

. تأتي خالتي رزيقة ورحيل الصغيرة تسلم على غيث وعلى عبد الرحمن الذي تحمله هي الأخرى تحتضنه تشم رائحته وبوجع تقول آه يا عبد الرحمن..

يصمت الجميع ليأخذ غيث رحيل قبل أن ينتبه الصغيرين لذهابهما...

وصل غيث و رحيل للملتقى، هناك حضور كثيف ليس كغير العادة فالمهتمين أصبحوا يعدون على الأصابع، فتتساءل يا ترى من هو؟ فترى صور الملصقات، «إنه الكاتب يعرب» تلتفت إلى غيث إنه الكاتب يعرب نُكران، لا أكاد أصدق أنني سألقي أمامه؟

. أجل أنت.. أتشكين بموهبتكِ؟ سأكون أنا من ينشط الملتقى وسأعطي الكلمة إليكِ..

.«أحم.. أحم» أصبحت مشهورا وصرت تمنحني بعض الفرص

..

.لا بأس أن تكوني متسولة أدب وفكر.
.من يستطيع أن يهزمك أو أن يقدر على لسانك الطويل
.يضحك ! هل نبدأ من جديد؟
.لا ليس الآن.. أرجوك.

التزم الجميع أماكنهم في القاعة، تجلس رحيل في المقدمة، أما غيث فيذهب ليأتي مع الكاتب وبعض من الصحفيين للجلوس في المنصّة الشرفيّة.. إنها ثواني معدودة ويدخل من كانت تحلم بلقائه كيف وأنها ستَلقي أمامه !

يُطلب من الحضور الصمت.. تعالت صيحات الإضاءة.. يدخل الوفد تحت التصفيقات الحارة مع الوقوف له..

كانت رحيل تشعر بالفخر برؤية غيث وهو في تلك المنصة مع هذا الكاتب، الذي قال ذات يوم لا أحد يسألني ماهي جنسيتي، فأنا عربي ولا أحد يسألني ما اسمي؟؟ فأنا ضمير حرف.. لا تهم الحدود ولا الأسماء مادام هناك فكر وأدب، ورب موجود يدعوا للخير في الوجود، فما بالكم تبحثون في خصوصياتي وتنسون ما تذرفه كلماتي..

رحيل تائهة في ذلك الجو الأدبي المتميّز تتأمل حديثه يبدوا مغرورا قليلا لكن «معليش» يحق له ذلك، في حين تسأل وتجيب نفسها حتى تجد صوتا يخترق مسامعها: «والآن أترككم مع رحيل» علينا دوما أن نشجع الوجوه الشابة المحبة للأدب، لعلنا نكون الشمعة التي تضيئ دربهم وبعدها نرى ماذا يقول كاتبنا المتميز يعرب نُكران فيها.. و سيكون ذلك من خلال محاولة اسمها: «يلومون حزني اذا بكى».

تصعد رحيل مرتجفة الخطوات محدثة جوفها إذا هي محاولة اسمها ها؟ !

تصل إلى المنصة، تسلم على الحضور وعلى يعرب نكران و باختصار تبدأ في الالقاء.

يلومون حزني إذا بكى

ويتّهمون إيماني بعدم الوفا
وكأن الدّمع إذا نزل كفر
و القلب إذا جُرح كذب
فمن قال إن وجع القلوب أبكم؟
كيف لي أن أنس صلة رحم الدّمع للمقل؟
كيف أنسى صورة رضيع لرصاصة سأل
شكلكِ يُشبه الموت و أنا أريده أجل
فالميت لا يخاف الموت فيالا العجب !!
ما نفع الحياة بلا أُم وأب؟
وبيت من بعيد الزمان قد خرب
أ ذنب السكوت المنحل؟؟
أم ذنب مستعمر محتل ؟؟
يلومون حزني إذا بكى
أ حُمق هذا أم أن الضمير قد نسى
ذكرى محمد الذرة وراء أبيه قد احتمى
كيف يلومون حزني إذا بكى؟ !
ويتّهمون إيماني بعدم الوفا
لما أرى مسلمي بورما الحبيبة في الأسى
يُعتقلون ويعذبون بنار لا تُنطفى
أحجة مقنعة ضرب الرقاب
أم أنّ الإنسانية عقلها قد انسلخ

فليصمت الجميع تقولها هذه الجملة بحدة باكية، فتختنق لتبتلع كل الأحزان دفعة واحدة تتنهد وبعدها تواصل
أتركوا مشاعري تُجهش بالبكاء
ولا أحد يقول اصبري فبعض الصبر موت لا شفاء
فليس الحزن نقص إيمان

فأنا بالنهاية إنسان
يملك قلبا لا بلورا من زجاج
اطرقوا قلوب البشر
فبعضها من دون باء
تتعمّد أن تكون وباء فيصبح معناها شر
وبعضها بدون لام إذا التقيتها أبشر
كيف يلومون حزني إذا بكى؟؟
ويتّهمون إيماني بعدم الوفا
فكرامة الإنسان بالوحل قد انغمست
وذو المال في الوساخه يستحم
وسلطان الكراسي في جثمان الموتى يلتحف
وشاب في مقتبل العمر ينتحر
فكل حقوقه في الحياة تحترق
والحياة أصبحت غابة لقوم يعترف
إنه مصاص دماء وبعد
بوقاحة اختلطت بقلة الأدب
فلا تلومون دمعي إذا بكى؟
ولا تتهمون إيماني بعدم الوفا
لأنني إنسان خلق لكي يحيا
لا لكي يدفن حيا لأنه قال كفى.. لأنه قال كفى.. قال كفى.

كان إلقاء رحيل مؤثرا جدا، ربما لابد أن يحظر الحزن دوما في كلماتها رغم أنها كانت تنوي إبعاده، لربما هو أبى إلا أن يلتصق بها أكثر..

كانت الكلمات تحترق حين البوح بها، وكانت النقاط دموعا ترسم معاني الحرف.. فأحيانا يكون وقع الإلقاء أكثر تأثيرا من وقع الكلمات عندما ينبع كل هذا من صدق الاحساس.

عندما انتهت، خيّم صمت رهيب لمدة دقيقة ليتعالى التصفيق

أكثر من مرة، في حين رحيل كانت تتذكّر كل ما كان، لتفرّ دمعة سجينة من معتقلها، ليسألها يعرب نكران ما سبب تلك الدمعة؟

.فتجيبه :

لا تزال الدموع ترسم لحن الخلود
فما أنا أصبحت أنا إلا بعد جهود
وتلك الحدود قيود
تُبكينا لأننا لا نزال نطمع لرجوع بعض العهود
فالظلم يقتل الحرية والثورة أصبحت شبحا مسجون
أنا لا ألوم
أنا فقط
أعاتب لحن الدموع

.بنبرة سخرية يسألها يعرب:

أها ! قلت إذا لحن الدموع؟.. لماذا تكتبين رحيل؟

. نكتب فقط لنحي ما بداخلنا الذي مات، وأحيانا نموت نحن لتحيا الكلمة و أحيانا نقتلها لنحيا..

يتفاجأ بالرد ليرد بسرعة...

. ألا تظني أن هذا ليس بمكانكِ فتعابيركِ وكلماتك عادية جدا.. ربما كان من الأفضل أن يكون في هذا المكان شخص آخر..

رحيل لم تعي ما سمعته.. رسم الذهول حالة بكماء.. ليتدخل غيث إنها تحاول وهذا شرف للمحاولة يقطعه يعرب بتعجرف رافعا يده.. ما أكملت بعد

.أتعلم ما عيبها؟ عيبها هو تواضع في الكلمة..

يسترجع الذهول وعيه عند رحيل لتجيبه: لربما كانت كلماتي خجلة فتعابيرك عارية وتعابيري محجبة.. فبعض التواضع يرفعنا للقمة وبعض الغرور يكسر الهمة..

انهال على غيث ألف خاطر، «لقد بدأت رحيل بالهجوم يا إلهي لقد زدت على عاتقي وعلى عاتقها أسى مصحوبة بخيبة أمل تعاني الألم

يقطع نكران وصال غيث مع خياله ليجيب رحيل:

. إلى جانب هذا أجد كلماتك عادية مغمسة بأخطاء فكرية لا يمكن تجاهلها او السكوت عليها...

. تندهش رحيل قائلة :أخطاء فكرية ؟؟ أفكارنا ليست في طبق واحد، و أفكاري ليست بأفكارك فلا تتدخل في شؤون الكلمات ولا تكن سيدا على كلماتي وأنت لم تطلب حتى حق التصريح أن تكون لها خادم.

يندهش الحضور فقد أصبح الملتقى الأدبي معركة بين كاتب لا أحد يستطيع أن يتجاهل ما قدمه من ابداع، وبين أول حضور لشابة لا أحد يعرفها أكيد أن موازين القوى ليست في كفة واحدة فبدأ الصفير في القاعة يطالب بانسحاب رحيل، ليتدخل غيث بترجي الحضور بالسكوت فيقطعه نكران، أعجبتني هذه اللعبة، أتركونا نكمل النقاش ولا داعي للتشويش، فالتشويش أحيانا يكلف الإنسان النسيان، ليعيد بعدها نظره إلى رحيل..

. اضطرابك رحيل هو دليل أخطائك فبدلا من شكري، حاولتي التستر على أخطائك بالهجوم، وهذا أمر طبيعي جدا من حقك الدفاع عن كبرياء ألفاظك أما عن كلماتك فإنها لا تساوي شيئا عندي لأكون لها خادم لأنها مليئة بالأخطاء الفكرية، لذا عليك أن تتأملي قبل أن تتهجمي من خلال كلماتك النحيلة.

يصفق الحضور له بشدة.. في حين رحيل تنصت إلى خيالها قائلا: أهذا من كنتِ تعشقين كتاباته تفضلي إذاً رُدي عليه:

. كلماتك سيدي تشعرني بالشفقة، فإذا كان الكبرياء نُحفا، أجل تركت لك سمنه الغرور لعلك تصبح أكثر انتفاخا فإبرة الفرقعة أيها الرجل هي كلماتك ذاتها، فلا تتجنّى على خوفك المنكسر فبعض الكلمات تخنق صاحبها فلا تجعلها مشنقة لك بدل غرورك..

.استوعبي الكلام جيدا قبل التسرع بالرد وهذا خطأ آخرونقطة أخرى عليكِ.. أنا لم أذكر أن الكبرياء نحيل، بل قلت أن كلماتك نحيلة وتحتاج لغذاء متنوع المعاني يقويها لتكتمل أنوثتها فتصبح امرأة واعية لا طفلة متهورة تملك لسانا لاذعا يقتل المعاني قبل الكلمات..

. تركت لك ان تستوعب أنت كلماتك المبعثرة الفقيرة ودعها تتسوّل بعيدا عن منطقتي..

.يضحك نكران بشدة ثم يرد قائلا: لو كانت كلماتي تتسول مثل ما تدّعين، لكنت ثريّا وما وجدتني هنا أتفقد أغلاطك بهدوء لأنها مبصرة للعيان، فما بعثرت إلا بعضا من كلماتي شفقة مني على معانيكِ لعلني أشد وزرها لتخلع عنها جلباب الفقر وتكتسي الغنى..

. تنظر رحيل إليه وكأن الخيبة امتلكتها لدرجة أنها ترغب بالاستسلام ومع ذهول المستمعين وصدور بعض الأصوات قائلة: «ياو شكون نتي؟ راهو نكران؟» إلى جانب هجوم نكران اللامتوقف واحمرار غيث وتذكرها لكل أوجاعها ترد بنبرة حزينة تكاد تختنق :

مللت من تعدد الأسماء
ومللت من عقول جوفاء
ومللت أن أكون آخر الأشياء
فأنا أيضا إنسان
لا يتحمل عناء الغباء
فأنا لست بالحمقاء
ولا مغفلة تحلم بالسماء
لذا شكرا لكل من إلي أساء

هذه النبرة الحزينة المختنقة لم تستطيع أن تجعل لسان نكران يعشق رحمتها ليرد ساخرا مستهزئا:

هل أنت دائما تشعرين بأنك آخر الأشياء وهل المغفل يحلم بالوصول للسماء؟ إن من يفكر بأنه مغفل قد غفل عقله أكثر منه

وما ربط تعدد الأسماء بحياتك هو اختيارِك الأعمى لعقول تُسمينها بالجوفاء باسم الغباء..

.تنزعج رحيل فقد بدأ التركيزيفقد ثباته وأصبح التوتروالتعصّب يمتلك أفكارُها المصدومة لتجيبه: شتان بين السباحة والغوص وشتان بين الجلمد و الثريا، أنصحك ببعض من التجديف لأفكارك الميتة وأنصحك التخلي عن فلسفتك العمياء التي لا تُبصر سوى عقدك المتعجرفة..

. وكأن ردها استفزه وجعله يفقد بعضا من هدوء أعصابه وتركيزه قائلا:

شتان بين ردي على قوقعتك الصغيرة على سرد حكايات جيل مضى، وبين النقد على أسلوبك المنحل، لذا تمهلي بالكلام إنك لا تردي بمحور تعليقي جيدا فأنصحك بالسكوت بدلا من ردٍ فاقد الذكرى..

في حين غيث يهتم بتهدئة روع الحضور وينصح رحيل بالتروي التي أخذت نصيحته بعكسها مجيبة يعرب قائلة:

أتعلم ؟؟ من قبل كنت دوما اتساءل عندما أراك أهمس لنفسي قائلة: كيف أصل إليه لكي معه أتحدث

فمن أنا إلا إنسان تعود في أفكاره أن يتريث ومن أنا من بين الحضور اللامع ليأتي إلي ويتحدث؟؟

أو تعلم أيضا؟ كنت أعشق كتابات نكران وبت اليوم أكره شخص نكران، فأسلوبك يعاني عقد النقص وأشفق على تهديدك الخائف.. تكلم و افصح فبعض الحماقات تجعلني أضحك فما رأيتك لحد الآن تبدع أما أنا راضية بفرقعتي الصغيرة لأن التواضع سمة لا يملكها شخص اسمه يعرب..

تفاجأ نكران لهذه الإجابة فهي لا تخشى أحد، ولا شيء يردعها، أنا يعرب نكران كيف لها أن تجرؤ على قول هذا الكلام لي؟ أي رحيل

هذه التي لا تخاف لا من ظلم الكلمات ولا تأبه لكرامة كتاباتي وإبداعاتي لتضربها عرض الحائط .. ليجيبها بلغته الخاصة:

.أفهم المعاني أم أصبحت المعاني تفهمني
كلماتي ما بالها تجاوزت حدودها لتوبخني
حجّتها أنني هجرت مضجعها الورقي ونسيت أسطري
وهي الوفية والبشر كالعادة خرقة بالية لها توصيني
أن يكون حبرها قائلة اكتبيني، يصمت لبرهة من الوقت ..

. تهمس يُذكّرني بقلم الرصاص، رواية قلم رصاص هي أحدث رواياته التي أكثرها شهرة وترجمت لأكثر من لغة

.تجيبه من دون أن تفكر قائلة :
تمهّل حين ترسم ملامحي
فأنت تسيء إليها بقلم رصاص
يعبث بلون السواد
فبدل أن تستنطق جمالي
استنطق عيوبي
حينها فقط
سيصبح سواد القلم جمالا

- إنها تحفظ كلماته، إنه تناقض آخر يرسم حب الشيء وكرهه..

يبتسم نكران ابتسامة إعجاب مع سؤال استفزازي: وتراكِ تجعلينني مرجعك من جديد..

فيزعجها رده لترد عليه:

أصمت.. أصمت.. أصمت
فالحقيقة من بين شفتيك تسربت
ولسانك السكين ذبح الكلمات بعد أن تشكلت
فلست أدري ما سمعت

أو أنني فقط عجزت
أن أرد فأصمت
فأنا نقطة عنك ترفّعت
فارحل أيها الرجل
الذي فقد نقطته فصار معناه قد رحل
لتضيف:
يستهويني غرور الرجال.. وبكل كبرياء..
يقول أنت الكلمة وأنا المعنى.. هو لا يدري أن مفتاح المعاني معي.. وأن النقاط بحوزتي.. مملكتي.. وبفضلي أنا كان حرا.. ولولا الشفقة لجعلته خاتما في إصبعي، لذا بعثرت النقاط في وجهه وتركت لها الحرية في اختيار المعنى..

يصفق الحضور.. ماذا حدث؟ فمن أول الجدال لأخره وهي في ظلمة الاتهام والولاء كله ليعرب نكران

يضحك يعرب ليجيبها افرحي أيتها الرحيل، فقد أصبحت تشبهين الورود

تجيبه: الورود؟؟ خذوا الورود بجمالها وعطرها واتركوا لي شوكها فأحيانا يكون شوكها أحن علي من حاملها..

.تشبهين النساء بطبعك يا رحيل..

بدأت رحيل بالتمايل وكان الإنهاك بدا يرسم معالم الإغماء من جديد، إنها مواجهة لم تكن في الحسبان لتختم كل شيء قبل الانهيار قائلة: أحيانا نحتاج لشيء جميل ينعش ذاكرتنا الميتة.. تتنهد وبعدها تكمل باختناق بصوت يعاني رجفة الكتمان بلغة الأحزان..
أحس بوجع ليس ككل وجع
جرح يزداد عمقا ويستميتني بالقمع

لا ألوم احد
فالكل معذور
أمام شخص مغدور
لا أعاتب أحد
فزماني ترك الفرح بسؤاله عني مهموم
فلا تأسفي يا روحُ فأنت كالشمعة تموت مع كل لهيب تذوب

أتعبتني يا نكران، و أتعبت فكري حتى أصابه الإغماء وحين ذكرت كلمة نساء، سينتهي اللقاء وسأرحل بصحبة اسمي ألا وهو الرحيل.. وهذا آخر ختام اللقاء..

قال إنني كباقي النساء
فتركت الرحيل له هدية
ليكتشف بنفسه
من أنا
من بقية النساء

تنزل بعدها رحيل من المنصة وعيناها تمطر شتاء يناديها نكران: تعالي.. ارجعي رحيل.. يعيد غيث: رحيل ارجعي.. لا رد من رحيل.. يصفق لها الحضور.. فما سببه تغييره المفاجئ المساند؟

رحيل لا تأبه لأي أحد لا ليعرب ولا لغيث ولا لتصفيق الحضور.. إنها فقط ترحل تعانق رحيلها دون أن تستمع لأحد حتى أصبحت في حضن الرحيل لا تظهر.

يخيم بعدها صمت رحيل.. يتسمر غيث.. ويلعب نكران دور التنشيط قائلا: كم هي قوية هذه الرحيل فما وجدت أقوى من هذا الرحيل، إنها تملك الشيء الذي سيجعل منها أشياء ليختم بدوره هو الآخر الملتقى، لقد كان اليوم حقا مميزا فلقد أعجبني جدا ذلك الجدال بطبعه الهجائي، ولكن يجب علي أن أعترف أنه كان بحلة أدبية، ليس كل من يقف لأول مرة يستطيع أن يرد ارتجالا من غير معونة قلم وورقة،

ودمتم بخير والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

انتهى الملتقى الأدبي بالصور والإمضاءات و.. و.. وانتهى يوم رحيل بصفعات لا تُنتهى ..في حين هم غيث بالرحيل هو الآخر يناديه نكران تفضل غيث سلم روايتي قلم رصاص لرحيل ..يتفاجأ غيث يحمل الرواية ويذهب بصمت.. ليتصل مباشرة بهاتف رحيل.. ولكن سرعان ما يكون الرد أن خط مراسلكم مغلق يرجى إعادة الاتصال بعد حين..

رحيل تحت تلك الشجرة التي اكتست كفن الزفاف الذي غارمنه المطر، فقرر نزعه إياها غصبا حتى من دون تراضي.. تتساءل: هل كل شيء كتبته كان هراء؟ هل أنا من هؤلاء الناس ذوي الفقاعات والعقول المغلقة والأفكار المعوقة؟ أم أنني لا أملك شيئا من الموهبة؟؟ إنه يعرب نكران، يعني أنا لن أصل حتى إلى حلم أصبح يعاني وهم الحمل وأنا كنت أظنني في مخاض الكتابة.

في حين تتحاور مع خيالها الصامت تشعر بغيث بجنبها حاملا المظلة قائلا: لما يا رحيل تفعلين بي وبحالك هكذا؟ أنت لا تزالين مريضة انظري إلى نفسك كم أنت مبللة؟؟ هل علي أن اعتني بالصغيرة أو بالكبيرة ها؟؟

. تضحك رحيل، لا عليك لم أنتبه أنني مبللة، ولكن المطر هو الذي استضافني إلى هنا وليس من عادتي أن أرفض دعوة المطر ليصفني بعدها بالتكبر.

. يضحك غيث سوف أجن ذات يوم بسببك، فأنت ولسانك الطويل ضرتان، نسيت لدي هدية لك

.هدية؟ ماهي؟

.تفضلي؟

. إنها رواية قلم رصاص لقد قرأتها لذلك النكران هل جئت بها إلي لتستفزني أنت الآخر؟

.لا لقد أرسلها إليك نكران بحد ذاته انظري بالداخل ماذا كتب

فيها؟

« تسرع رحيل لتجد خطه يشكل جملة واحدة يا أيتها الرحيل، رحلتي ولم ترحل معانيكِ القوية»

.تسأل غيث ماذا تعني هذه الجملة؟

.هذا اعتراف جميل من نكران

. لقد كنت أكثر تهجما، ولكنه استفزني أنت تعلم أنني لا أحب نظرة الاستعلاء، يمكنه أن يقول لي أنني لا أصلح للكتابة، ولكن لا بأس بأسلوب يحمي قلبي من بعض الرضوض.

.ولكنها تجربة أضافت إليك بعض من التحديات.. عندي اقتراح لك رحيل؟

.أي اقتراح غيث؟

. أريدك أن تجمعي كل ما كتبته، أريد أن أضم كل ما كتبته في كتاب واحد، أنا مؤمن جدا بموهبتك دعيني أنشرها

. تضحك رحيل.. كلماتي أنا؟ تريد أن تزوجها وتمكثها في البيت قصدي في الكتاب..

. تمزحين.. أظن أنه من حق كلماتك أن نمنحها الحياة لا يجب قتلها أو أن نتركها أسيرة يا رحيل

. حسنا غيث لكن سنبحث سويا على من ينشر الكتاب أكيد لست أنت.. أعلم انك تريد مساعدتي وخاصة بعد اليوم.

.لا رحيل كنت أنوي ذلك دعيني أقوم بذلك.

. أعلم ذلك غيث لكنني لا أريد واسطة لتحيا كلماتي، لا أريد أن تعتاد على الراحة في أن تحيى، عليها أن تتعب لأجل البقاء لأجل الحياة.. دعنا نفتش سويا على من يقبل بتبني كلماتي لنشرها.

. موافق لا داعي لكي أضغط عليكِ، فعنادك لن يسمح بالتنازل عن قراراته يوم يا قمري..

.تنظر رحيل مبتسمة إلى غيث بنضرة إعجاب قائلة :

مهما واجهت كل الرجال لك فقط سيدي يكون الانحناء.. انحناء التقدير والاحترام.. لأنك لست كباقي الرجال.. فإذا كنت قمرا فهذا يعني أنك السماء، وإذا كنت حرفا فاعلم أنك الكلمات.. وإذا كنت بكل هذا الكبرياء، فاعلم أن أبي رباني على تقوى الإله.. وعلى ثوب الحياء، الذي تُحرجه أحيانا بالغزل لا الهجاء.

-أممم ! أشعر ببعض من الارتياح، هيا لنعد إلى البيت لي حديث آخر معك، كما إنه هناك مفاجأة تنتظرك في البيت.

.مفاجأة؟ مثل مفاجأة اليوم؟ لا.. لا أريد.. غيث اشتقت لرحيلتي الجميلة.. حتى عبد الرحمن الصغير أحتاج أن أجلس معه قليلا، لعله يذكرني بعبد الرحمن رحمه الله، أشتاق إليه غيث خذني أولا لزيارة قبره.

.نعم إنها فكرة رائعة، أنا أيضا أحتاج لذلك عندما يرانا سيفرح أكيد، ربما نحن في مكان وهو في آخر لكن يظل هناك شيء يجمعنا هو إحساسنا ببعض و الإحساس أصدق أنواع الوصال..

يتوجّه غيث ورحيل بسيارته السوداء الضخمة الأنيقة نحو المقبرة التي كانت تتوسّل السّماء أن تكفّ عن البكاء، فكل شيء أصبح يعمّه الوحل فكيف لكعب رحيل أن يمر أو ان تستطيع هي الأخرى أن تمر..

يحتار غيث كيف يصل إلى قبر عبد الرحمن الذي يقابله على بعد ثلاث أمتار، في حين رحيل لا تأبه لا لوحل ولا لمطر مقتحمة كل شيء لتصل لذلك القبر، في حين يبقى غيث في ذهول كيف قادها قلبها إلى قبر عبد الرحمن رغم أن الاسم غير أن الرؤيا غير واضحة من بعيد..

تقرأ عليه الفاتحة تهمس باسمه : عبد الرحمن.. عبد الرحمن، وكأنه خالد للنوم وهي تريد أن توقظه دون إزعاج.. أنا هنا عبد الرحمن .. أتيت لأراك فأطمئن عليك، أنا هنا أحيا بموتك الحي، أتنفس ذكرياتنا معا..

تتنفس بقوة لا تستطيع الوقوف تجثو على ركبتها تتلمس القبر، مع كل هذا البرد، أعلم أنك ستشعر بالدفء لأن إيمانك كان دوما قوي..

غيث يبقى جامدا في مكانه، لكن سرعان ما يلحق بها يجلس أمامها على ركبتيه، يقاطع حديثها نحن معا يا عبد الرحمن نحن الثلاثة معا، ورحيل الصغيرة بخير دائمة السؤال عنك، أعلم أنك تسمعني يا أخي اشتقت إليك، يرفع غيث رأسه للسماء يصرخ بشدة فتفزع رحيل: لقد تركتنـــي في وقت صعب جدا يا عبد الرحمن لم أشبع من صحبتك يا أخي، أحتاج إليك.. أحتاج إليك نحتاج إليك بيننا فهل أتيت؟

رحيل تبتلع حزنها تهدئ غيث وتطلب منه الرحيل، يستفيق غيث يقفان والوحل أصبح لونا لثيابهما إنه لون القبر بصم فيهما رائحة الموت، في حين مغادرتهما تنتبه رحيل: أنظر غيث إنه قبر دلال إنه بعيد جدا عن عبد الرحمن، لم أستطع تحقيق طلبها الأخير لأنها قضت على كل ما هو جميل وأخذت كل شيء جميل..

تقترب هي وغيث إلى قبر دلال يقرآن عليها الفاتحة، يردد غيث بعدها رحيل الصغيرة بخير رحلتي يا دلال و يا ليتك اخترت نوعا آخر من الرحيل غير هذا..

يرجع غيث ورحيل إلى السيارة وكلّهما وحل، لتكتفي رحيل بالقول لا عليكِ يا سيارة تحملي بعضا من الوحل فإنه من رائحة القبر..

يرد غيث: جميل هو تعبيرك تمسكِ إذا جيدا لعل اليوم سيكون مسكننا القبر..

تصمت رحيل وترد بحزن: يا ليت ذلك يحصل يا غيث.. يصمت غيث ليتخذ سرعة البرق وقودا للانطلاق ليصل بسرعة لمنزل خالتي رزيقة، التي سرعان ما تفتح لهما الباب فتتفاجأ لحالتهما، أو بالأحرى في ثيابهما فتضحك بشدة هل كنتما تلعبان بالوحل؟

. ترد عليها رحيل: جل كنا نلعب بالوحل ولكن أي وحل؟؟ لكنها

سرعان ما تستمع لصوت تشتاق إليه فأحيانا بقدر الاشتياق يكون الاحتياج إنه صوت ماما ذهبية تنادي ماما.. ماما

تأتي ماما ذهبية بسرعة ليكون العناق بشدة، تهم رحيل بتقبيل جبينها ثم عيونها و يديها، وهي تبادلها نفس القبل مرددة يا ابنتي يا كبدتي، ارتحتي شوي .. توحشتك يا مجنونتي..»

عبد الرحمن ورحيل الصغيرة يلعبان و كأنهما خارج ذلك المشهد، كم هو جميل صدق الطفولة البريء الذي يرسم ملامح الواقع سوى باللعب.

تجلس رحيل بجانب أمها وغيث بجانب خالتي رزيقة لتبدأ هي الحديث، أ تعلمين يا رحيل لما أمك هنا؟

.لأنها اشتاقت إلي طبعا

.تضحك ماما ذهبية قولي لها يا رزيقة

.أنا أخطبك منها لابني غيث ولنتفاهم أيضا على الزفاف في اقرب وقت ممكن نظرا للظروف الحالية

.تضحك رحيل بقوة ولا أحد يفهم، حتى ظنت خالتي رزيقة انها قالت أمرا ما أضحكها، لكن سرعان ما تنتبه فتعتذر لتقول: أمي لا تزال كما هي تريد تزويجي وفقط و أنا التي ظننت أنها اشتاقت لي..

.«يا ابنتي واش بيه الزواج سترة وكيما غيث متلقايش..»

هنا يتدخل غيث ليقول: إنها وصية عبد الرحمن.. وكأنه يمارس نوع من أنواع الضغط أو أنه بدأ يشم رائحة الرفض فبدأ بتحذير أفكارها عنم بَعد..

.أجل غيث إنها وصية عبد الرحمن.. أنا موافقة !

.إذن العرس سيكون الأسبوع القادم؟ وقبل أن ترد رحيل عليه تهم كل من خالتي رزيقة وو ماما ذهبية بالزغاريد فتلتزم الصمت...

لتتكلّم من جديد خالتي رزيقة: بهذه المناسبة أعددت لكم أنا وذهبية شخشوخة بالدجاج الله الله.. سنذهب لإعداد المائدة.. وعندما

نكمل أناديكما..

ينفرد غيث برحيل لتتهرب منه قائلة: علي أن أستحم و أبدل ثيابي من هذا البلل و الوحل..

نعم.. نعم رحيل و أنا كذلك علي بنفس الأمر.

تُنادي خالتي رزيقة رحيل وغيث.. تأتي رحيل مشرقة باللون الأسود.. فتسألها: أين غيث؟

. إنه يستحم الآن، تجلس، ثم تسأل أمّها بهمس: كيف أحوالك مع وائل؟

. كما تعرفينه يا بنتي..

. ماما أود ان أسالك وجاوبيني بصراحة: من هي أمي؟

. والله يا حبيبتي كل الذي أعلمه أنك كنتِ غالية عليه كثيرا وكان يرى الحياة بوجودك كل الذي صارحني به أنه أحضرك من المستشفى ولكنك ابنته من صلبه، أما باقي الحقيقة لم يروها لي، طلب التحفظ عليها.. ويشهد الله أنه كان أب حقيقي وزوج رائع لم يفرق بتاتا بينك وبين وائل، لقد كانت لديه علبة فيها رسائل كثيرة لم يكن أحد يجرؤ ليفتحها لكنه في لحظة غضب أحرق كل ما فيها، وبعدها ندم ولم تبقى سوى تلك العلبة..

. أحضريها لي يا أمي إنّها من رائحة أبي، رغم أنه توفي و أنا أودع سن الطفولة.. تسكت.. ثم تكمل.. رحل باكرا، كان شغوفا بالمطالعة مثقفا رغم أنه لا يملك أي شهادة لربما هذه الشهادة تخجل حين تلتقي به، كنت أفتخر وهو يتحدث، أستمع وأستمتع بحواره، أشتاق إلى حكمته، حنانه، حبّه، إلى كل شيء منه.. صدق الذي القائل «أعطيني واحد فاهم والله لا قرا..»

. أجل يا ابنتي سأحضرها لكِ غدا أو بعد غد، لتغيّر الموضوع، و أخيرا ستتزوجين، فقد ارتحت وسأطمئن عليكِ.

. كُفي يا أمي بدأتِ كالعادة افرحي سأتزوّج و بعد أسبوع أيضا..

استجاب الله لدعائك بسرعة..

يأتي غيث: آسف تأخرت عليكم أتمنى أن العشاء لم يبرد بسبب تأخري

. لا تقلق يا عريس ابنتي حتى لو برد لعشا نسخنهولك المهم انك ستتزوج رحيل.

. يا الله أمي والزواج.. تريد أن تتخلص مني بأي طريقة، فيضحك الجميع.

تنتهي مأدبة العشاء برحيل ماما ذهبية مع غيث الذي سيتكفّل بإيصالها للبيت تذهب رحيل للنوم مع رحيل الصغيرة التي استسلمت للنوم قبلها.. تدخل غرفتها.

يذكّرها خيالها بالموعد سيكون العرس في الأول من مارس ألفان واثني عشر.. تقف أجل سأتزوج غيث.. من قال أن هذا سيحدث؟؟ أجل سأكون عروسا بعد أسبوع ولدي ابنان رحيل وعبد الرحمن، كم هي متمرّدة طبيعة القدر، يلعب بنا كيفما يشاء ينتهي بنا حين نبدأ ويبدأ بنا حين ننتهي..

المطر يرهق السماء تعبا فهو لا يدعها ترتاح حتى في وقت راحتها.. فالكل نيام إلا هي تتعالى بالبكاء حتى طرق مسامعها الآذان الذي رأف بحالها لتتوقّف فتنام السماء، فتنهض رحيل فور سماع الآذان للصلاة، وفي حين ذهابها لتتوضّأ تسمع صوت البكاء.. من يبكي يا تُرى؟؟ تمشي على مهل إن الصوت آت من غرفة خالتي رزيقة، تدق الباب على مهل، تفتح خالتي رزيقة لها الباب في محاولة منها لإخفاء دموعها وحزنها في ابتسامة: هل استفاقت ابنة الغالي؟ أشتاق إليها حتى وهي هنا.. إنها من رائحة عبد الرحمن.. ابني الغالي عبد الرحمن...

. تُحسّ رحيل بحزنها فتذهب إلى غُرفتها تحمل رحيل الصغيرة وتأخذها إليها، وبمجرد أن ترى خالتي رزيقة رحيل تدمع عيناها وتعم الفرحة وجهها الممتلئ، فيصبح مشرقا بعدما كان مغيّما فتشكر

رحيل: «شكرا يا ابنتي ربي يهنيك يا غالية» تعاود شكرها و تحمل رحيل الصغيرة لتدخل الغرفة مغلقة الباب خلفها..

رحيل تشعر بخفقان قوي ما الذي يحدث لي، أشعر بإحساس غريب جدا.. شيء يشدني إليها.. ويقتلني ألمها.. لقد كنت أنانية فهي بمثابة جدتها لرحيل.. سأدعها تنام عندها من اليوم فصاعدا.

تذهب للصلاة تستمتع بالسجود ولا بد من قراءتها لسورة الرحمن فهي تُثلج صدرها وتُحسّسها بالراحة، إضافة لقراءتها أذكار الصباح وبعدها ترجع لتخلد للنوم مجددا، لتستفيق على صوت غيث وعبد الرحمن الصغير انهضي يا كسولة إنها العاشرة والنصف صباحا.

تنهض رحيل فزعة لتصرخ في وجه غيث: كيف لم تدق الباب؟؟ مابالك يا غيث هل نسيت آداب االدخول؟

. والله أنا أردت الاطمئنان كيف تكوني في الصباح، ويضحك، فترميه بالوسادة ليخرج مُسرعا ليبقى عبد الرحمن واقفا مُنزعجا.. تسأله: ما بكَ أنت الأخر؟ فيجيبها ببراءة الأطفال الصارخة: تضربين أبي و أنا هنا؟ فيضربها بالوسادة ويهرب، فتضحك مكلمة نفسها يبدو أنني سأعيش حياة مجنونة هنا..

في نصف ساعة تُصبح رحيل جاهزة للخروج بحلّة خضراء وكأنّها تُمهّد لدخول الرّبيع، و أخيرا تخلّت عن اللّون الأسود..

يراها غيث فيبتسم ويُعطيها العلبة قائلا أرسلتها إليك أمّك، تحملها رحيل بسرعة لغرفتها وتضعها في الخزانة لترجع من جديد لتسأله بفضول متشوّق للإجابة: إلى أين اليوم؟؟

. اليوم؟ اليوم.. علينا بالتبضّع للزفاف وأول شيء فستان العروس.

.آه هل عليّ ارتداء ثوب الزّفاف؟

. بل يجب يا رحيل.

مضت الأيام بسرعة وكأنها غمضة جفن، وغدا سيكون حفل الزفاف.

رحيل لا تستطيع الاستسلام للنوم رغم إلحاح النعاس المستمرو تثاؤبه، ليفرض عليها النوم لكن هذا كان دون جدوى فمحاولاته سرعان ما باءت بالفشل، وغيث مثلها تماما إنه يفكر شارد مستلقي على ظهره على السرير يتأمل سقف المنزل محاكيا نفسه: ستكون رحيل هنا غدا.. إنه لا يكاد يصدّق.. الأميرة التي انتظرها سنوات ستكون غدا ملكه.

تفتح رحيل الخزانة تُفتّش عن علبة أبيها تجدها في الأسفل، تشمّ رائحتها تتأمّلها لتفتحها بعدها فتتساءل كم من الأسرار كانت تُخفي هذه العلبة الخشبية الجميلة، ليتك تركت تلك الرسائل لكنت عرفت بعض الحقائق، تعيد غلقها ولكنها تنتبه لشيء مكتوب بالداخل على الطرف العلوي من العلبة في الجهة اليسرى إنه اسم مكتوب بالعربية، تتمعن وتركز عيناها في الكتابة أجل إنه اسم امرأة رزيقة بن عمر، تتفاجأ ! ما هذه الصدفة الغريبة؟ إنه الاسم الكامل لخالتي رزيقة؟ ولكن الأغرب والأصح أن هذا الاسم هو اسم أمي، في حين أنها تتساءل بدهشة وحيرة، يتغلغل من جديد إلى مسامعها صوت البكاء تخرج من غرفتها، فتتأكد أن الصوت من عند خالتي رزيقة، فتتساءل رحيل من جديد: ما بالها ؟؟ لقد تركت رحيل الصغيرة تنام عندها، تدق الباب، فلا تنتظر أن تفتح لها بل تدخل مباشرة، فتجدها تحتضن صورة والرسائل مبعثرة فوق السرير، تنتبه لدخول رحيل.. تنتفض.. وبعدها تحاول جمع تلك الرسائل في العلبة..

رحيل تُصاب بالذهول.. ! تذهب فتجلس على سريرها من دون أي كلمة، تأخذ العلبة منها، فتسألها خالتي رزيقة أعجبتكِ هذه التحفة الاثرية الخشبية، إنها هدية غالية علي.

-سامحيني يا ابنتي إذا نوضتك .أصبحت أتأثر بالذكريات وأحن إلى الماضي، رحيل تصمت... تخرج الرسائل الباقية من العلبة في حين خالتي رزيقة تنظر إليها بعجب لتهمس في روحها ليست الوقاحة من طبعكِ يا رحيل لم تُخرج الرسائل؟ ولا تأبه لكلامي ..

رحيل تحمل العلبة إلى فوق تتأمل في الجهة اليسرى في الطرف الأعلى فتنتبه لوجود اسم منقوش على الحافة في الجهة اليسرى في الطرف الأعلى.. إنه مكتوب بالعربية، إن الاسم هو: العربي سالم ..رحيل ترمي العلبة دون وعي منها تنهض تضع يديها على أذنيها وتصرخ صرخة واحدة وتسقط مغشيا عليها..

خالتي رزيقة يتهجّم عليها الخوف والفزع، لا تعلم ما الذي يجري تُحاول أن تجعلها تستفيق لكن دون جدوى تهرول بسرعة لمحمولها لتتصل بغيث الذي رد بسرعة وكأنه كان على موعد مع الحدث، للتوسل إليه بالمجيء : أرجوك غيث تعالى بسرعة رحيل لا أدري ما بها لقد أغمي عليها ولا تستفيق..

غيث يتكلم معها ويلبس ملابسه بسرعة لا يعي ما يحدث ؟؟ هل من جديد؟؟ لابد أن هناك سبب لهذا الإغماء؟ ربي يستر..

. يأتي غيث مسرعا، و ما إن يصل حتى تفتح له الباب يحاولان إيقاظها يلجأن إلى عطر قوي الرائحة لعلها تستفيق، وبعضا من الماء وحتى رائحة البصل لتفتح عيناها أخيرا، وبمجرد فتحهما تقف بسرعة فتسقط ثانية يمسكها غيث فتصرخ في وجهه أتركني لا تلمسني، تحاول خالتي رزيقة تهدئتها : أذكري الرحمن يا بنتي، تصرخ عليها هي الأخرى أنت بالذات لا تحدثيني

تذهب إلى غرفتها تحمل العلبة تأخذها إليها لتقول لها : أنا ابنة العربي سالم أنا رحيل سالم أنا رحيل سالم.. سالم.. سالم..

كيف كان بإمكانك أن تمثلي كل هذا التجاهل؟ كنتِ تعلمين أنني رحيل سالم.. ألم يخطر ببالك هذا اللقب؟ ألم يزر الفضول عقلك.. بل لِم لَم تسألي فقط ما اسم أبي؟ فقط لتتأكدي؟؟

تحمل خالتي رزيقة العلبة فتفتحها تشم رائحتها وتقرا الاسم عليها العربي سالم ... تسقط أرضا بعدها..

غيث لم يفهم أي شيء ...ما سر تلك العلبتين؟؟؟

رحيل تُحاول كسر كل شيء يأتي في طريقها، إنها العصبية تعلن ثورتها حين تصبح في كامل جنون الثورة فيصبح همها الدمار معانقا الانهيار، في حين خالتي رزيقة تُمسك العُلبتين وتُجهش بالبُكاء بصوت عال فتنهض رحيل الصغيرة و تكتمل ثورة البُكاء..

يحاول غيث منع رحيل من جنون التهور الذي امتلكته العصبية لحد كسر كل ما تمتلكه الغرفة من محتويات فتضربه وتضربه حتى تقع على الأرض.

تصرخ : لم تفعلون بي هذا؟؟
لقد كنت فرحة ...
فرحتُ لأنّ الأنا تحرّرت من لاّ أنا
لكنها فرحة مؤقتة
فقد أجتاح لا أنا من جديد الأنا
وصار الصراع من جديد
بين الأنا و لا أنا
لعلّني من جديد
أستطيع أن أجعل الأنا أنا
فمن أنا؟ من أنا يا غيث؟؟ من أنا؟؟

أبي يا غيث، كيف يتركني ويرحل ؟ كيف يتركني هنا أسكن القصر وهو مقره القبر؟

يقول إنه يعرفني أكثر من نفسي، وهو يقسو عليا أكثر من غيره.. كان قاسيا بإخفائه حقيقة لا تخُصّه وحده..غيث يطالب بأن يفهم لأن الفهم عنده في حالة ذهول: بالله عليكم ما الذي حصل؟

ترد رحيل: قل لهذه المرأة أن تعلمنا بالحقيقة، تزيد ثورتها فتدفعها للنهوض فتنهض فتذهب إليها فتنزع منها العلبتين تأخذهما لغيث تفضل اطلع على ما بداخل العلبتين، العلبة التي أرسلتها أمي معك بها اسم رزيقة بن عمر، والعلبة التي كانت مع رزيقة والتي تكتم فيها أسرار رسائلها بها اسم والدي العربي سالم ..

يندهش غيث: ماذا؟؟ ينحني إلى خالتي رزيقة يحاول اسكاتها قائلا: اتركي الحقيقة اليوم تقول ما في جعبتها، سآخذ رحيل الصغيرة الي بيتي وارجع.. أخبرها كل الحقيقة إذا خسرت واحدا لا تخسري الاثنين؟ ينظر إلى رحيل ناصحا استمعي وتريثي في فهم الحقيقة من دون عصبية القلق لا يحل أي شيء ولا يجعل الأمور إلا سوءا..

لا أريد عند الرجوع أن أرى ملامح الفوضى والتعصّب في التعامل، تحاورا.. لن أتأخّر.. ذاهب فقط لأجل رحيل الصغيرة..

يخرج غيث مُخلّفا صمتا رهيبا بعده.. يكسره أنين البكاء الثمل.. لتنهض خالتي رزيقة فتكسر كل ذلك السكون.. تقترب من رحيل التي اختارت زاوية الغرفة لتنكمش فيها.. مُحتضنة رُكبتيها وشعرها الحرير يُحاول تغطية ساقيها الفاتنتين بسواده الليلي.. تقترب منها أكثر.. ومع كل اقتراب يزداد قلب رحيل بالخفقان.. حتى أصبحت أمامها ليفصلها عنها شبر.. إنه استفزاز المشاعر عندما تتقابل وجها لوجه.. فتغمس رحيل وجهها بين ركبتيها بعدما رفعته، أهو خوف من المواجهة أو هي طريقة أخرى للاستماع؟

تتنهّد خالتي رزيقة تنهدا طويلا ثم تمسح دموعها لتعلن عن

بداية كشف الحقائق: أجل إنه العربي سالم رجل حياتي، بوجوده عرفت الحياة وبعده عشت موت الحياة..

أنت الآن تتكلمين مع ميتة.. كان يشتغل فلاحا في أرض أبي ومن لا يعرف أبي؟؟ الأراضي والمال والسلطة.. وكانت متعة أبي أن يذل عماله ليُحسّ بطاغوته يكبروعنفوان رجولته يُزهر.. كان ظلمه يجلدني، فكنت أخرج في المساء حين لا يكون موجودا لأهتم بالفلاحين ونعطيهم الكسرة و اللبن و الرفيس خفية عن أبي، وكان الوحيد الذي لا يقبل مني لا يد العون ولا الزاد، لفت انتباهي من اللحظة الأولى بذلك الجسم القوي والبشرة السمراء التي استعبدتها الشمس بالحرق، كانت تشدني إليه جديته، فقد كان قليل الحديث والتجمع، وفي وقت الراحة كان يحمل كتابا يطالعه بعيدا عن تجمعات الجميع، إلى أن جاء ذلك المساء، حين كنت أقدم لهم الطعام، وددت أن اساله عن سبب عدم قبوله مني الطعام أو أي مساعدة ..

في حين كان غارقا في ذلك الكتاب، كنت أنا جانبه، جاء أبي على غيرعادة فرآني معه أحمل الأكل، جُن جنونه فأخذ منه الكتاب وصفعه قائلا:عندما تتحدث مع أسيادك قف وتحدث ليحاول صفعي أنا الأخرى ليُمسك العربي يد أبي قائلا: إذا استمتعت رجولتك بضرب الرجال فإن بضرب النساء تُذل الرجولة.. فيزيده صفعة.. فيبتسم قائلا: اصفع يا سيدي فبعض الصفع يزيدني قوة، ليسحبني أبي للبيت صارخا في وجهي: «شكون نزلك وسط الرجال؟ ربي ينحيك بخصتي بينا»

طول الليل وأنا أفكر فيه.. وفي موقفه النبيل والفضول يقتلني كيف هي حاله؟ وماذا فعل له والدي؟

في الغد انتظرت أبي يرحل كعادته لأصرّ ان أراه من جديد، أجل إنه هناك لم يطرده من العمل.. فبعثت له رسالة أشكره فيه عبر الخدامة نتاع الدار، وكانت فرحتي شديدة حين بادر هو الآخر برسالة

أخرى.. ومن هنا بدأت قصة الرسائل وبدأت معها قصة أخرى.

أجل أحببته بقدر ما أحبني و أكثر.. لم يهمني يوما الفقر فقد عشت الغنى ولكن ظلت الروح فقيرة، كنت لا أريد أن اعيش مثل أمي في ذل وهوان، وكأنها جارية عليها أن تقول نعم وكفى لكل شيء حتى للضرب، عليها أن تطيع الأوامر كيفما كانت وكيفما كانت حجم الخطيئة فيها أو الذل.. أمّا الكرامة فودعيها، فهي قد أصبحت مقبرة يدفن فيها كل شيء جميل تخلى عن نكهة الشرف للروح..

ومضى عام وعامين وأصبح الذي بيننا يُصر أن نكون لبعضنا، ولكنه حلم مستحيل وحب لا تعترف به القوانين ولا الظروف.

اقترحت عليه أن اهرب معه لكنه رفض، ولكن جاءت فرصة أبي لبيعي لأحد أصحابه الذين يتباهون بالأراضي وعدد البقر والأغنام، وأنا أيضا كحيوان جديد عليه اقتناؤه ليخدم أرض حياته البور..

أخبرت العربي فجن جنونه وهربنا معا ولكن يعلم الله أنه لم يلمسني إلا بعد أن قرأنا الفاتحة بحضور الإمام والشهود، رغم كل ذلك الخوف لكنني كنت أرى سعادتي معه عشت معه شهرين من حياتي جد سعيدة حتى غارت السعادة مني.

أعطاني كل شيء، فالمرأة بالنهاية لا تحتاج سوى لحب وحنان وشيء من الأمان لتمتلك الحياة و السعادة، لكن أبي لم يُحب لي الحياة ولا السعادة، بحث عنا حتى وجدنا.. وكان من السهل جدا عليه أن يلفق له جريمة ليدخله السجن ويسجنني أنا عنده..

لقد أسقاني العذاب في يوم وليلة ذلك الأب ذو القلب الأسود، وبعد عشرة أيام اكتشفت أنني حامل، أخبرت أمي لكي تساعدني على الهرب.. لكن الجبن والخوف من أبي جعلها بدل مساعدتي تشتري منه مشنقتي، فعملا جاهدين أن يجهضا ما في رحمي

هربت مرارا من البيت بمساعدة صديق العربي الوفي البشير، الذي حاول إخفائي كل مرة من دون أن يشك أحد في أمره لأحمي ما في بطني من الإجهاض.. تشردت هنا وهناك حتى زارني المخاض في ليلة برد ورعد في بيت مهجور، أو قولي كهف استضافتني فيه عجوز كبيرة كانت تعمل فيه على مساعدة المجاهدين وتمدهم باللباس «القشابية والكسرة و غيرها»، لقد رأيتم الحياة على يديها، لقد ولدت بتوأم.

هنا رحيل ترفع رأسها توأم.. كان لي توأم.. أين هو؟

تستجمع خالتي رزيقة ذكرياتها تُحاول ترتيبها فتذرفها متتالية، وكأنها تحضرها وترسم جراحها على مرمى عينيها.. دعيني أكمل، أجل ولدت توأما، ولدا وبنتا، لقد بقيتم معي شهرا واحدا فقط ليأتيني البشير يعلمني أن أبي علم بمكاني، فأعطيتكما له، فيأخذكما معه للمدينة ليضعكما في مركز الرحمة مؤقتا، في حين أسافر إليكما..

لكن عندما أردت أن ألحق بكما خطفني أبي من جديد وسجنني في بيته وصرت مقيدة بأفكار من حديد تأبى أن ترحمني، أن تدعني أرجع إلى ابناي، فتمضي ستة أشهر، عام، وبعدها عامين، ثلاث فأربع، كانت كبدي فيه تحترق وقلبي يتمزق، أجبرني أبي بعدها على الزواج ليقتلني يا ابنتي.. يقتلني.. قتل روحي وجسدي لما سلمني لعابد مال لا إله، أذلني.. و.. و.. تجهش البكاء، لن أسامح أبي أبدا.

في هذه الأثناء يخرج العربي من السجن يعلمه البشير بكل ما حدث، هدده أبي بالقتل وأرسل إليه جماعة ضربته، فرحل إلى المدينة ليحاول إخراج الطفلين فوجد الفتاة فقط.. أما الابن فقد أَخذ للتبني وبعدها سمعت أنه تزوج وأصبح يشتغل حارس لمصنع الإسمنت.

كنت أموت غيرة، لما سمعت بزواجه، قررت الانتحار مرارا لكن دون جدوى، وتمر السنين لتصل عشرا كنت دوما أتوسل الله أن يأخذني لأرتاح من كل العذاب الذي أعيشه، لكن مشيئة الخالق قررت

تركي لتأخذهم جميعا حين أحرق الفلاحون المزرعة والمصنع والمنزل انتقاما من شجع وطمع أبي و أعوانه وشركاءه.. ليموت الجميع وأنجو أنا، بقيت ثلاث أشهر في المستشفى للمعالجة، لأصبح بعدها الوريثة الوحيدة لكل شيء فأبي لم يرزق إلا أنا، فقد كنت وحيدته وأسيرته وكان جلادي فرغم زيجاته المتكررة لم يهبه الله بعدي أي ذرية وكأن الله عاقبه فعاقبني.

بعت كل شيء ورجعت للمدينة اشتريت هذا البيت.. ومشروع صغير سلمته للبشير لكي أعيش منه وشوية خليتهم في البنك للزمن، اخترت المدينة لأنسى كل ماضي الريف الأسود، ولأبحث عن فلذتا كبدي، ذهبت للمستشفى لكي أسال عن ابناي، فلقد بعثت معهم اسميكما سميت الابنة، رحيل وذلك لأن العربي كان في ضيافة الرحيل والابن سميته عبد الرحمن لأنه أحب السماء إلى الله، وكان رحيما جعلني أنجبكما في وقت كان الكل يحاول فيه اجهاضكما، وبعدها تأتيني صاعقة خبر موت العربي من البشير، لتموت معه روحي..

تذهل رحيل توأمي كان اسمه عبد الرحمن؟

أجل وعملت على تمييزه بوشم صغير في الجهة اليسرى جهة القلب لكل واحد منكما إنه حرف العين..

رحيل تنزع عنها القميص أهذا هو الوشم؟

ترتمي في حضنها خالتي رزيقة أجل إنه هو تقبلها وتقبل الوشم إنه هو لم يكن يخطر في بالي أنك هي ابنة الغالي.. ابنتي.

رحيل تبقى جامدة فهي لا تصدق ما حدث لتسألها ولكن أين هو توأمي:

تبتعد عنها قليلا لتجيب ذهبت لمركز الرحمة وكان من حسن حظي أن الذين تبنوا عبد الرحمن أرجعوه لظرف ما، فتبنيت عبد الرحمن على كبر، كان عنيدا، رفض في البداية أن يذهب معي، حتى بعد

لقاءات متعددة إليه ليوافق..

خشيت بعدها أن خبره بالحقيقة لأنني كنت أكيدة أنه سيتركني، وخاصة أنه كان في عمر المراهقة، كان عمره خمسة عشرة عاما، كنت فقط أحب دعمه، حتى لأجلِ ما أبحث فيها عن طريقة أُرجع إليه الكرامة لاسمه فقد كان ابن حلال، لكن أولاد الحرام أرادوا أن يعبثوا بالحقائق فحرموه وقتلوني.

تعيد طرح سؤالها: أين عبد الرحمن؟ كم هي غريبة هي صدف الأسماء؟ أهو غباء منها أم هي عناء ذاكرة بدأت تفقد تركيزها في تأمل الأشياء، فأصبح الذكاء به وباء، فمن كان يعيش مع خالتي رزيقة سوى عبد الرحمن نفسه عبد الرحمن واحد، لتستفيق بصرخة لا تقولي إن عبد الرحمن هو توأمي لا تقوليها، أترجاك ! لا تقولي.. هذا لا تقوليه قولي أي أحد إلا عبد الرحمن.

إنه عبد الرحمن لا أكاد أصدق إنني فقدته، لقد رحل من دون أن يعلم أنه ابني الحقيقي، لكن يشهد الله أنني حاولت ان أعوضه عن كل حرمان لسبب لم يكن لي دخل فيه، لقد شرّدت روحي الحياة، أما جسدي فدعيه جانبا لم يصبح ملكي أبدا بعد العربي، إنه كصخر يلاحقني فقط ليمثل روحي إنها على قيد الحياة وفقط، أنا مت منذ زمن بعيد يا ابنتي، أنا فقط على قيد الوفاة.

تبكي رحيل بشدة ! كان توأمي ، الآن أدركت عناقه الأخير لي، أخوته، روحه الطيبة علمت بأنني أخته كان الحب بيننا حب أخوة، كان حبا لافتا.. أخي.. أخي..

لم لم تنتبهي قبل ذلك، لم؟؟ كيف لم يبدر منك أي شك أنني ممكن أكون ابنتك وخاصة أن اسمي رحيل وكيف لم تنتبهي إلى لقب سالم؟

. لم يخطر ببالي أي شيء وخاصة أن عبد الرحمن لم يحك لي أي شيء عنك يدعوني للشك، حتى البشير حين أراد أن يخبرني أين أنت، رحل هو الآخر، بعد أن اخبرني أن العربي استعجله الموت، بقيت حزينة، وحين استفقت من غيبوبة حزني بحثت عليك في الوقت الذي وصلت فيه لمقركم وجدتكم بدلتم مقر سكناكم.

يدق الباب.. ويدق.. يزداد شدة.. تنهض خالتي رزيقة وكأنها آلة جامدة عليها فتح الباب.. يدخل غيث مستعجل: هل الأمور على ما يُرام؟؟

تنظر إليه رحيل وتنظر إلى خالتي رزيقة وهي جالسة منكمشة:
انتباه
هناك في الجهة اليسرى شيء اسمه قلب
فلا تتعبوا أنفسكم بقتله
لأنه بالأصل قد مات
لذا عظم الله أجركم بدفنه

ملامح القلق والتوتر تبدو منهكة التعب على وجه غيث، فالأمور تمشي عكس ما يريد إنه من المفروض يوم زفافه، لما الألم يطرق أبواب حياته دون سابق إنذار؟ لما يزداد وقاحة يُجمّلها الحزن بابتسامة ماكرة تنال منه؟

يقترب من رحيل ويزيد اقترابا منها، ينحني ليتلمس شعرها يحاول إبعاده على شعره فتدفعه أتركني لا تلمسني، كان أخي.. كان توأمي تثور فتنتفض فتحتويها خالتي رزيقة في أحضانها أنا أمك يا ابنتي تصرخ وتبكي بشدة حتى أصبح الصوت يستنجد الصراخ بالتوقف، فيختنق فيصيب بالخرس المؤقت.. وكلما زادتها حُضنا زادتها هدوءا، اتركيني أشم رائحتك، دعيني أنتقم من سنين فقدانك، أتركيني أشم فيكِ رائحة

العربي وعبد الرحمن، أتركيني ولا تقتليني أنت أيضا، امنحيني الحياة بقربك، إن الله أتى بك إلي.

وقع كلمات خالتي رزيقة استعمرت قلب رحيل فجعلته يستنطق كلمة أمي.. أمي.. أمي.. اجل أنت أمي.. ضميني بشدة لعلي أنسى.. احتضني جسمي وروحي يا أمي..

غيث يقف متأثر جدا.. فصديق عمره يكون توأم رحيل.. حبهما كان أخويا، إنها فطرة الأخوة رسمت معالمها بيننا، لا أكاد أصدق ما يحدث، ليختم تفكيره آذان الفجر..

تقبل رحيل يدي خالتي رزيقة سأذهب لأصلي، ليضيف غيث سنذهب سويا أنا سأذهب إلى المسجد المجاور وآتي.

إنها السابعة والنصف صباحا لا تزال عيون السماء تكتحل بالأسود، ترتدي رحيل ثيابها وتخرج بسرعة وكأنها لا تريد أحدا يعلم بذلك الخروج..

في حين ذهابها بقليل يأتي غيث.. تفتح له خالتي رزيقة، أهلا بك يا ولدي أتعبناك معنا..

.لا يا يمة تعبك راحة.. أين هي رحيل؟

. انتظرني سأناديها.. تذهب لتأتي بسرعة وهي فزعة: إنها ليست في غرفتها يا غيث ! إنها فتاة مجنونة أخاف أن تهور في تصرف ما، أرجوك احضر لي ابنتي..

ينزعج غيث ويغضب صارخا ألا تعلم أنه يوم زفافنا، و أنا؟ ألا يهمها أنا؟ أين أنا من كل هذا؟ ألا أساوي شيئا عندها؟؟

يذهب وكأنه يعلم أين ستكون فقد أصبح يفكر بعقلها ويعلم جيدا كيف تفكر؟ و أنه أكيد أن خيالها الآن قد اصطحبها للقبر، أجل أنا أكيد أنها هناك عنده..

رحيل قرب قبر عبد الرحمن تصارحه بالحقيقة، فيتناثر التراب

يمينا وشمالا دفعة واحدة دون أن يلمس شيئا منها، إنه نسيم دافئ هذا الذي أثار خجل التراب ليعبث بالهواء، أجل.. إنه يستمع إلي.. إنه ارتاح الآن.

دموع رحيل أصبحت لا تطرق أبواب الأجفان فقد أصبحت الطريق مُعبدة لتهمر دون توقف لتهمس له أتتذكر يا عبد الرحمن كلماتك:

غرباء.. غرباء.. غرباء..
في منفى الوطن قتلى
نتجرع الإهمال
ونفكر في الغربة
ونحن في غربة الموتى
نتكحل بالألوان
علنا نسترجع الحياة
فترانا بدل أن نحيا نموت غرباء
لك الراحة الآن.. ولنا الانهيار..
تكمل حديثها بنفس يُربكه البكاء
أحيانا يا أخي نولد يتيمي الفرح
لا حظ ولا أمل
سوى ذلك الحزن الذي يعشق المرح
هكذا ولدنا لنعيش الموت
ونتنفس الحياة
لا نحتاج لا لصبر ولا لأمل
فقط لدمع يهوى الغزل
يقتلها الحزن ويخنقها البكاء لتكمل:
يظننا البعض أننا في غاية السعادة
ليتهم يعلمون ببساطة

سرتلك الوسادة

أخي.. ظننتني صحبة أنا والقمر.. فتراه مثله مثل البشر.. ترك الباء مقيّدة.. ليصبح شره منتصر..

أخي.. حدود تفصلنا بيننا وبينهم..

يتعدونها رافعين الهمم

لينشروا في روحك الهم

ويجعلون الجسد أصم

ثم من جديد يسافرون

لتظل بعد ذلك حدود تفصلنا

يهُبّ من جديد ذلك النسيم الدافئ فيختال التراب بين يديها فيقبلهما بحنان ودفئ غريب، فتبتسم من دون ان تدري، لتحس بصوت يجتاحها.. بكى الرحيل خلفي وبكى لكنه خلف الراحة لي هوى.. أنا مرتاح يا توأمي.. ارتحت الآن.. لقد أصبح لي الآن هوية، ولقد كانت جميلة هي المنيّة..

يأتي غيث ويقطع وصال الروح بصرخة: رحيل.. لما تفعلين بي هذا؟ هل أنا آخر الأشياء بالنسبة لكي.. ربما نسيت أنه اليوم يوم زواجنا..؟

تجاوبه ببرود: تهتم فقط لأمور الزفاف.. ومن قال لك تعالى إلى هنا؟.. إنني أتحدث مع أخي، ما دخلك أنت؟ أنت لا تعرف ولا تحس لا بالألم؟ ولا معنى الحزن وظلم الجراح؟

. أنا فلسطيني يا رحيل.. الألم الذي تتحدثين عنه لم تريه أبدا عندما كنتِ هنا في دفئ عائلة يُغطيك الدلال.. كنت أنا في براد الموتى، على صخب القنابل وغطاء الدماء، كانوا يظنون أنني ميت لولا الرحمن، لكنت أيضا اسكن القبر، انتبه أحد الممرضين للأنين وأخرجوني في حالة لا يعلم بها إلا الله وخرجت من فلسطين بصعوبة لأجل عملية مستعجلة لإخراج شظايا الانفجار الصهيوني على غزة من جسدي.. و.. و البقية

تعرفينها..

وجدت حياتي تتجدد هنا.. تتحدثين عن الألم؟ أنا رأيت أخي بلا ذراع وأختي بلا رأس، لما استفاقت عيناي تمنيت وقتها العمى، فقدت عائلتي دفعة واحدة ولم يبق لي سوى الميمة و أنا أموت كل يوم لأنني لا أستطيع أن أراها أو أن أضمها، أن تحضر يوم زفافي اليوم، ماذا؟؟ أتريدين ان تتأكدي؟ يخلع معطفه يرميه جانبا ينزع القميص الصوفي الأسود ويرميه إلى جاب المعطف..

يصرخ في وجهها أنضري إلى يداي.. إلى كتفاي إلى صدري..

رحيل تفتح فمها عاجزة عن الرد فجسمه أصبح خريطة معناها فقط إنه فلسطيني..

يكمل حديثه معها

لم تستمتعين بتدليل دمعتي؟

لم تُفقدينها وعيها؟

وتُجبرينها على الانتحار الواحدة تلو الأخرى

تراها صامدة لا تتجرأ على تقبيل وجنتاي

من دون أن تدري تستفزينها فتحرقين بدلالك لها شيئا اسمه قلب

تقف رحيل وتتقدم إليه: تثبت عينها في عينيه ترد عليه بنبرة يكسرها الوجع والأنين:

عشت الحياة فلم تعشني

عشقت الصمت فنال مني

تنفسني الظلام لزمن طويل

فاشتد خنقي

حتى رغبت الموت

فابتعد عني

فتاهت حكايتي وسط حزني

وفر الفرح عني
فتغابى الكل و أدركت أنّ
أميرة القصر كانت تسكن القبر
وسجّانها زُجاجة عطر

تنحني فتعطيه قميصه ومعطفه لتهمس له من جديد :
احتاج أن أكون أنت
لزمن طويل
لعلني إذا أصبحت أنت
ستحيى من جديد الأنا
وأكون أنا
بعدما أصبحت أنت

غيث يلبس ثيابه بصمت.. غير آبه أو متأثر لبرد وهواء الشتاء القارص، ولكن كيف يأبه جسده للهواء وهو من اخترقته ظلم القنابل..

يستدير غيث إلى الأمام دون أن ينظر إليها.. يذهب ويرحل بصمت مُخلقا وراءه رحيل متسمرة لكن سرعان ما تلحقه بسرعة، لتجده ينتظرها في سيارته.. يعود بها إلى البيت..

تدخل فتجد أمها ذهبيه تصرخ في وجهها: بغيتي تفضحينا كاين وحدة نهار عرسها تروح بلا ما تحكي؟ وين رُحتي؟؟ هبلتي؟ يتدخل غيث: دعوها تفعل ما تشاء..

ترد ماما ذهبية: يا شومي ..كيف تفعل ما تشاء مابقاش الوقت غير ما وجدت.. سأتصل بمصففة الشعر والماكياج.. أنت اذهب يا غيث.. عليك مشاغل.. الواحدة تماما يبدأ الحضور بالوفود إلى القاعة بقيت ساعتين ونصف فيهم البركة..

تعاون كل من ماما ذهبية وخالتي رزيقة جعل الأمور تصبح أهون مما كانت عليه، ليمضي الوقت كالبرق الخاطف.

يأتي غيث، إنها الواحدة والنصف، لقد تأخر قليلا لكن معليش..

يسأل : هل العروس أصبحت جاهزة؟ تخرج رحيل مع زغاريد خالتي رزيقة والماما ذهبية

غيث يتفاجأ ! يا إلهي القمر انفلت منه الليل ليزورنا في النهار، إنه جمال وليس بجمال عادي إنه جمال ملائكي بريء طفولي الطلعة..

تخجل رحيل وترد: كف عن هذا غيث إنك تحرجني لتتعالى الزغاريد أكثروأكثر، ويذهب الكل للقاعة.

كانت الحفلة رائعة بجميع المقاييس، استطاع عرس الشتاء أن يدع برده خارج القاعة وأن يأخذ معه كل الأحزان..

ترجع كل من خالتي رزيقة وماما ذهبية البيت مع بعضهما والفرحة ترسم إشراقها على وجه كلتيهما الممتلئ ..لتخبرها بعدئذ خالتي رزيقة إن لنا حديث مطول يا ذهبية.

أما غيث ورحيل فانطلقا لحياة جديدة معاً تكون فيها الروح واحدة لا تخشى فيه وصال الجسد.. لقد ذهبا في جولة للمناطق الأثرية في الجزائر كلها.. وكانت بدايتها من جبال الأوراس بباتنة، جبال بوعريف وضريح امدغاسن و منطقة غوفي بآريس و .. و.. و..

كم هي جميلة هي الجزائر ولكن لا أدري لما يعملون على إلباسها الجلباب رغما عنها وقد أحل الله كشف جمالها الخلاب، تستطيع السياحة أن تنهض بخمولها لينتعش بعض الاقتصاد الميت، فها هي الجسور المعلقة بقسنطينة واخضرارها اللافت.. بجاية و تيزي وزو وسحر الطبيعة الذي يتحدى أي جمال خارجي، إنه جمال رباني بحت من دون أي اهتمام داخلي أو خارجي فقط هو ذو هوية ربانية.. جيجل ووهران، تلمسان وأثارها العتيقة والصحراء وذلك العالم الخرافي الذي تتغزل فيه الشمس وتهديها منظرا ذهبيا لرمالها .. و.. و..

كل الأمكنة الجميلة مُنقّبة.. والإهمال يرسم معالم انهيار للآثار التي رسمت تاريخا على جدران حضارة الجزائر، تستحق الجزائر أن

تكون قِبلة السياحة الأولى.. وليست قُبلة زنا بانتهاك و سرقة جمالها بالفوضى و الإهمال واللاوعي للأشياء الغالية، فهل أصبحنا لا نقدر الأشياء ألثمينة؟ ولما النفايات التي تحاول سرقة اخضرار الطبيعة بسواد ثقافة بعض من أهلها..

رحيل تستمتع بمضي الوقت وهي الشاوية البربرية التي تعتز بأصلها، فهي من عشاق شهامة وبسالة لالا فاطمة نسومروجرأة جميلة بوحيرد، وعامة مغرمة بشموخ المرأة الجزائرية وتاريخها الطويل في بناء الجزائروفي رسم قوة شخصيتها في الثورة الجزائرية..

في جولتهم السياحية يصادف رحيل وغيث بعض المعارض للألبسة التقليدية الجزائرية فكم تزداد المرأة جمالا كلما ازدادت حشمة الثياب.. فها هو اللحاف و الملحفة الشاوي وحلي الجبين والمقياس والخلخال، لملاية، لعجار، جبة الفرقاني الله الله المطرزة بخيوط الذهب، و.. و..

تتأمل رحيل الألبسة بإعجاب و وتعلم غيثا عن أسمائها.. فتعجبه الألبسة التقليدية المتنوعة. فالجزائر تتميز بكثرة التنوع المتميز والمميز.

يصل غيث إلى العاصمة فيتجولون في الأزقة القديمة للعاصمة لتظهر بعدها تلك البيوت القصديرية ليتكلم سوء الحال عن الأحوال فالصورة تتكلم، إنهما يندهشان، إنها العاصمة ؟ وليست العاصمة فقط تلك القرى التي مروا بها، التسول الذي أصبح وظيفة الكثير والكارثة أنها وظيفة لجميع الأعمارلصغارالعمر إلى أكبرهم سواء أكانت أنثى أم ذكر.. رجل أم امرأة ..شيخا أم عجوز.. شاب أم شابة.

تتأثر رحيل فتهمس في آذان غيث تأثرها قائلة:

إلى متى عدو الانسانيّة يستبد
أفكارهم جوفاء مغمسة بفلسفة عمياء أساسها عدم
لم يتذوقوا بعد طعم الألم

فلا تزال ملاعقهم من ذهب
يأخذون مثلهم الأعلى أبا لهب
ولا يعلمون أن نهايتهم ستكون اللّهب
وحتى هذا لم يهمّنا بشيء
رغبنا فقط بعيش هنئ
كرامة تغسل وجها هرم
رغبنا بعيش بسيط فقط
ولو كان ماءا، خبزا وملح
وما يهمّنا من العيش الرغد
سوى أن يعيش أطفالنا بسلام وأمن
فالفقر يوما لم يكن كعيب
فيا بلادي لا تنادي
فصرختي تقتل فؤادي
وأنت صامتة تقتلين ودادي.

غيث يطمئن رحيل قائلا: غاليتي هناك رب في الوجود، الذي خلقه الله لا يضيّعه..

يمسك يدها ويكمل طريقهما متوجهان إلى المتحف..

تنظر رحيل إلى صور المجاهدين، إلى لباسهم.. القشابية، الشاش والبرنوس، إلى أسلحتهم، فتهمس من جديد لغيث:

رحلوا يا غيث رجال الحرية
تكلموا فصنعوا حياة الشموخ بالنصر والمجد مروي
رحلوا وبعدهم احتجزنا الصمت فسكتنا
وصرنا نشتري الصمت لنحيا
فممنوع البتة أن يعبث اللسان خارج الفاه
قيدوه وابتلعناه
رحلتم وبعدكم لا نسمع لا نرى ولا نتكلم

شعارٌ جديد لكي لا نشقى
وحين نطقنا قالوا كفرنا
وكان النطق جريمة وقيد سجنا
إلى أين ذاهب هذا الوطن؟
فنحن نعيش في العفن
نريد قوتا وليس تابوتا
فدمعي حرق المقل
مالي في أحضانك منفية
نُريد سكن
نريد وطن
كرامتنا تُحفظ فيه بأمن
لم يعد الموت يهُم
فحريّتنا هي الأهم
فالهم حين يكسر الهمم
لا يُصبح بعدها يهم أي شيء
كل واحد هنا يا غيث يريد أن يقول : أنا حُر
وفرنسا تركت ماض مُرلن يَمُر
فأنا إنسان وليس عبد
لن نركع للخلق وننسى الخالق الذي خلق
يجب أن تُقال كلمة كفى
فلن يدوم ذلك القصر
فنهايتنا بيت واحد اسمه القبر
.آه يا رحيل ! آه ذكرتني بالوطن.. ذكرتني بضمير العرب..
.وهل يمتلكون ضمير، حين يصبح لديهم ضمير.. يصبح بعدها سهل الحديث عن تحرير الوطن.

مر شهر كامل على غياب رحيل وغيث ليحملهم الرحيل من جديد إلى خالتي رزيقة بعد جولة كانت رائعة بامتياز، استطاعت فيها الروح أن تتغذى من تاريخ الجزائر من خلال آثارها، أمكنتها، عروضها، تقاليدها وغيرها.

تفتح لهم خالتي رزيقة وهي تحتضنهم اشتياقا و عبد الرحمن الصغير ورحيل يركضون باتجاههما، إلى جانب ماما ذهبية أيضا التي كانت بانتظارهم، وعيونهم أصبحت مثل النجوم بريقا تُزين سواد العين جمالا، لتستهل ماما ذهبية الحديث بزغرودة طويلة والدعاء ربي يهنّيكم ويرزقكم بالذرية الصالحة.

تضحك رحيل وغيث الذي كان منهمك بإدخال الحقائب..

.تهمس ماما ذهبية في أذن رحيل : كيف كانت الأحوال هل فاتت الأمور على خير؟

. تخجل رحيل فيسمح ذلك بجعل خديها ورديتين، لترد بهروب أجل يا أمي يوم فاتت الأمور على خير

لتتدخل خالتي رزيقة : الحمد لله يا ربي كي شفناك عروسة..

.شكرا لك أمي، أنا متعبة أريد أن أرتاح قليلا.

.أحم.. أحم أنا هنا لا أحد يطمئن على غيث

.نت الخيروالبركة يا ولدي

.شكرا خالتي ذهبية

. العفو لكنها رحيل أكثرنا حظا فهي تملك ثلاث أمّهات، وبقينا اثنتين..

.ربي يرحم ماما شريفة، لقد عرفت الحقيقة إذا يا أمي

. أجل لقد كان بيننا حوار طويل أنجب الكثير من التفاهم والتراضي، الحمد لله على كل شيء.

.الحمد لله.. سأخلد للنوم قيلا قد انهكني السفر..

.أجل أدخلا كلاكما لترتاحا وحين يوجد الغداء سأوقظكما..

.أجل هوكذلك.. اشتقت فعلا لطبيخكما، علي ببعض المساعدة منكما لكي أصبح طاهية جيدة..

يدخل غيث ورحيل غرفتهما.. ينظر إليها بإعجاب: لا أصدق أنك أصبحت ملكي وأنك لي يا رحيل.. !

. صدّق يا غيث.. لقد مر شهر وأنت ترفض التصديق، أم أنك مُصر على عدم التصديق؟

. جنونكِ العفوي جميلتي، ومنحك المستمر للحب أن يعيش بأمان تحت إمرتي يجعلني من جديد إنسان.

. دفئك ومعاملتك الرقيقة تُشعرني وكأنني طفلة صغيرة تُحسّسها ببراءتها ونعومتها للحياة فصرت أرى الوجود جميلا

.ألم تفزعك تلك التشوهات؟

. بالنسبة لي هي لوحة فنية بقدر ما تحمل عنوانا للألم، تحمل أيضا أنك فلسطيني، وهذا بحد ذاته فخر لي، أنا أصبحت أحيا بروحك غيث..

.يقترب منها اكثر، فيسمح الاقتراب بالعناق، ليحس بعدها بثقل جسد رحيل، إنها نامت مثل الأطفال الصغار، يضحك، يحملها ويضعها على السرير، يقبل جبينها، ويُغطيها، ليخرج من جديد ليلعب مع عبد الرحمن ورحيل الصغيرة فقد أثقل كاهل قلبه الاشتياق.

كل من ماما ذهبية.. وخالتي رزيقة يقومان بإعداد وليمة الغداء «كسكسى باللحم و الطاجين لحلو والمقلوبة الفلسطينية» التي تعلّمتها خالتي رزيقة خصيصا أيام الجامعة لتعدها لغيث لكي لا يحس بغربة المكان وغربة الطعام معا.

وكأن رائحة الطعام الزكية جعلت النوم يستفيق من غيبوبة النعاس عند رحيل لتنهض بسرعة وتخرج من الغرفة ..

. مممممم ما هذه الرائحة الزكية؟ يعطيكم الصحة، تذهب وترفع رحيل الصغيرة تشم رائحتها وتضمها إليها اشتقت إليك يا صغيرتي الجميلة.. لو تعلمين كم عمتك تُحبّك؟؟ فتنتبه فترى عبد لرحمن ينظر إليها قائلا: إنني انتظر دوري وأكثري من القُبل ها..

يضحك الجميع لتجيبه: رحيل ولكن لمن ستشبه؟ تشبه أباك طبعا في كل شيء، حتى في طلباته..

كانت الفرحة تُعلن سعادتها المفرطة.. حتى السماء هجرتها تلك الغيوم السّوداء.. والشمس التي كان الرحيل كثير البكاء عليها، تسطع من جديد مع إشراقه تزيّن السماء وتنشر دفئ الأمل في الطبيعة معلنة دخول الربيع..

يذهب غيث إلى العمل طالبا من رحيل أن تعمل على ما أوصاها به، إنها متفائلة للغاية وتعمل على جمع كل ما كتبته في حاسوبها لتطبعه، إنه تعمل بشغف، كيف لا وهي تتعامل مع نقطة وحرف، إنها كلها جنون ستنهال على الكتابة عشقا حتى تخجل منها.

استمر الأمر خمسة عشر يوما بين الجمع والقراءة والتصحيح والاختيار بمساعدة غيث طبعا، وحان الوقت للذهاب لحماية جنينها من أي سرقة يجب عليها أن تضمن حقوق التأليف، وكان ذلك سهلا سرعان ما أكملوه، ليأتي الدور على من ينشر هذا الكتاب الذي أسمته «حلم نقطة».

نعم إنه حلم النقطة أن ترسم المعاني لكل حرف.. لكل كلمة، من دون تشويه للجملة، ولكنها طبعا متأكدة، إنه هناك كلمات لا تحتاج للنقطة لكي يُفهم المعنى مثل كلمة الله، محمد خير الأنام صلى الله عليه وسلم.

إنها فقط إنسان، تحاول أن تكون إنسان في زمن يحتاج فقط فيه الإنسان للإحسان من كلمة إنسان، ليصبح إنسان كذا هو حلم

النقطة أن توضع عن الحرف بدقة من دون أن تغتصب حق نقطة أخرى.

رحيل تستيقظ باكرا فلا تجد غيث لقد ذهب مبكرا هو الآخر، لديه أعمال كثيرة فوق بعضها البعض تنتظره، عليه أن يرتبها بعد الظروف التي مر بها، تتّصل به، فتعلمه أنها خارجة من المنزل لاقتناء بعض الأشياء، فيذكرها بالموعد مع مدير مؤسسة النشر على الثانية زوالا، اليوم يُعطينا الخبر النهائي بعد اطلاعه على كتابك «حلم نقطة» .أجل غيث سأكون في الموعد..

تسرع رحيل للخروج تقبل الأولاد، وتحضن ماما رزيقة على عُجالة من أمرها مخبره إياها أنها سترجع في الحال، وكأنها ذاهبة للتأكد من شيء ما.

ترجع رحيل متبضعة بأكياس كثيرة، إلى جانب حملها هدية مغلفة باللّون الأبيض متوسطة الحجم تضعهم في غرفتها، تذهب أولا لتصلي صلاة الظهر، تتغدى على عجالة لتنصحها ماما رزيقة بالتمهّل، لتجيبها: في الثانية يأتي غيث، علي أن اكون جاهزة، ترجع بسرعة للغرفة، تلبس ثيابها الجديدة ووجها المشرق كأنه بدر استعان بجمالها لكي يزيد إشراقا.

يدق غيث الباب يدخل، فيَذهل ! فتسمح الدهشة بفتح فمه متسمرة في حيرتها: أنت ملاك نزل من السماء، هل ارتديت الحجاب؟ .أجل غيث.. لقد ارتديت الحجاب.

. تبدين كعروس الجنة بهذا الثوب الفضفاض الأبيض ربما خجل أن يفصّل جسدك الأنيق لكنه عندما وُضع عليك زادك جمالا وروعة، ما أحلاه، اللون الأبيض عليك، أشعر أنني بصحبة ملاك، وما أحلاه على وجهك القمر، يقترب منها يمسك يديها.. يقبّل جبينها.. ويهمس لها بحب وفخروإعجاب مغمس بغزل: أنا أكثر الرجال حظا لأنك

زوجتي، الحمد لله.

.هذه المفاجأة الأولى، لا تزال المفاجأة الثانية.

.أ هناك مفاجأة ثانية أحلى من هذه؟ لا أظن !

.خذ هذه الهدية وافتحها وبعدها نرى أيّهما أحلى.

يفتح غيث الهدية بلهفة يملأها الفضول المتوتر لمعرفة ما بداخل الهدية، إنها حذاء صغير كثير الألوان تغار منه الروح لجماله الطفولي البهي بعطر البراءة، لمن اشتريته؟ إنه يصلح لرحيل ولعبد الرحمن، مممم لكنه أصغر بكثير عليهما، رحيل، لا تقولها رحيل: هل أنت حا....

من دون أن تكمل: أجل أنا حامل غيث؟ سيكون لدينا طفل أو طفلة ثالثة وربما توأمان إن شاء الله ونصبح في ستة عليك بشد الهمة أيها الأب الرائع.

غيث فرحته لا تسع السماء فما كان من ردة فعله سوى حمل رحيل التي تصرخ أنزلني غيث ما بك هل جننت وتستعين يا ماما رزيقة أرواحي.

تأتي بسرعة فينزلها غيث فتذهب رحيل مسرعة إليها محتضنتها، ستكونين جدة للمرة الثانية يا أمي..

تستقبل ماما رزيقة الخبر بدموع الفرحة: الحمد لله يا ربي يلي عوضني بيكم ألف مبروك سأنسج من الآن للمولود الجديد او المولودة إن شاء الله توأم يا ربي، تعانق غيث ورحيل معا تقبلهما وتدعو الله أن يحميهما ويبعد عنهما كل سوء، وتهنئهما.

يتذكر غيث : يا إلهي اسرعي رحيل لقد تأخرنا عن الموعد، إنني في كامل تفاؤلي وهذا الخبر الرائع زادني أمل في الحياة وفي المستقبل، لنذهب.

تنتبه خالتي رزيقة للحجاب فتقول بسم الله ما شاء الله، الله يزيدك إيمان ونور، قمر ما شاء الله.

سرعان ما يصل غيث ورحيل إلى السيارة التي هي الأخرى استجابت للطلب، لتنطلق بسرعة ولكن شيء ما جعل رحيل تستوقف غيث ليركن السيارة على الجانب الأيمن من الطريق، ماذا يا رحيل أفزعتني؟

انظر هناك أما ذلك المحل المخصص لثياب الأولاد الصغار

يضحك غيث بشدة هل نبدأ من الآن فعلا أنت مجنونة؟ ظننت لوهلة أنك مستعجلة في أمر ما، أو أنك رأيت أحدا ما.

. أوف يا غيث وينك نت ويني أنا؟ أنظر أمام المحل تسرع تقطع الطريق يلحقها مهرولا أين أنت ذاهبة ليقف متسمرا بعدها حسين هل أنت حسين؟

. غيث لا يعقل ورحيل أيضا، يطأطئ رأسه رافعا أخاه ليحمله معه للسيارة

تصرخ رحيل وغد هل هذا هو، حقير تنفعل لتبوح نظرتها ببقية احتقرها للموقف

يدفعها غيث تعالي رحيل توقفي نحن في الشارع انظري إلى حالته إنه عقاب الخالق

حسين يحس بإحراج شديد ليرد على رحيل: لقد أخذ يحيى عقابه يا رحيل لقد فقد عقله وأصبح لا يدرك أي شيء، أعلم ما حصل لقد أخبرني عبد الرحمن بكل شيء حين عودته و لـ..

ترد بدون أن تدعه يكمل ولكن الذي لم يخبره إياه انه توفي.. توفي..

سمحت الصدمة بجلوس حسين أمام يحيى ليسألها كيف؟

ترحل رحيل دون أن تجيبه ليعتذر غيث لحسين، فيلحقها توقفي رحيل لا تدعي جنونك يتحكم في تصرفاتك الواعية، وحين وصولها للسيارة تقف سيارة أمام سيارتهم لينزل رامي ومعه امرأة حامل ينظر خلفه، فيجد رحيل يقترب منها يعرفها على زوجته فتسأله: آية..

ويقاطعها: الذي لم يكن وفي مع صديق عمره، كيف له أن يكون وفيا مع شريك حياته تاركا لها المكان والكلام

رحيل تتفاجأ من لعبة القدر و أوراق الصدف التي تعبث بحياتها ليقطع شرودها غيث: من هذا ؟ ترد بسرعة صديق يا غيث إنه صديق أسرع بنا للمؤسسة.

وكان لرحيل ما تريد تنظر إليه تارة وأخرى، فتحس بأن غيث يريد قول شيء ما، فتسأله غيث هل تريد قول شيء ما؟ يتردد غيث في البداية ليخبرها دفعة واحدة لقد تركت لك مربيتك شريفة كل أملاكها ووائل في السجن حاليا.

تصمت رحيل لتجيبه بهدوء منفعل: أظن يا غيث أن عليا أن أقسمه بين أمي ذهبية وأمي رزيقة، تتنهد لتكمل هذه نهاية، وائل وهذه نهاية لياليه الثملة.

تنظر لغيث بتمعن شديد لتناديه: غيث أشعر بشغف شديد لزيارة بيت الله لنذهب جميعنا.

يبتسم غيث ليجيبها بكل ثقة: بإذن الله سنذهب يا زوجتي الغالية، ها قد وصلنا للمؤسسة هل أنت مستعدة لأي رد؟

.أجل يا غيث، لا تخف من جنوني هذه المرة، إنني أشعر بارتياح وهدوء غريب، لكن هناك خوف يستفزني حين يجول في خزانة المستقبل لابسًا ثيابه الممزقة التي استغلها الحاضر

.ارتياح وهدوء وخوف وأنت معي..؟ كم أنت متقلبة يا رحيل؟ !

-يدخل غيث ورحيل المؤسسة، وفي الرواق قبل الوصول إلى المكتب يلتقي غيث بصديقه طارق أمين الذي اطلع على كتاب رحيل قبل أن يسلمه ليعرف رأيه فيه الذي هو الآخر مدير لمؤسسة نشر فكر وأدب، بحيث اقترح نشر كتاب رحيل، لكن رحيل رفضت لأنها ظنت أنها وساطة من غيث فهي كانت مُصرة أن تحيى كلماتها بنفسها وترى حريتها بتعبها، ليزيد إصرارا على طلبه: اذا رفض أنا هنا..

يهنئ رحيل على الكتاب قائلا: أنت مشروع كاتبة يا رحيل واختلافك وتميزك في الأسلوب يرسم بصمة متميزة لا يملكها أحد سواك وهذا هو التميز الذي يرسم الإبداع، أن تكوني أنت، فلا تشبهين أحد سوى رحيل، بالتوفيق «مدام»، ومحظوظ هو غيث بكاتبة، ومبروك الحجاب، زادك الله رفعة وإيمان.

.شكرا لك.. الله يبارك فيك، كلامك يرويني تفاؤل ويجعل ثقتي بنفسي ترتفع نوعا ما، فأنا أحاول فقط أن أكتب ما احس رغم إنه جميل أن نكتب وجميل أن نحس بم نكتب لكن من الأجمل أن يحس غيرنا بم نكتب.

.جميل..

يفترق غيث ورحيل عن طارق أمين..

يدقا على باب المدير: يدخلان..

كان الاستقبال باردا نوعا ما.. رغم أنه على علم بالموعد.. لا تحتاج القضية للبرود.. فشيء لا يزعج أن يقول لا، كل إنسان قناعاته وميوله ولا أحد يجبر أحد أن يرى الشيء جميل وهو في عينيه بشع.

يسأله غيث: هل اطلعت على «حلم نقطة»..؟

فيرد عليه بأسلوب سخر منه من رحيل بطريقة استفزتها: أجل اطلعت عليه ولكن النقطة تحجبت اليوم فلا أظنها من اليوم فصاعدا تخدم معنى الحرف.

.ترد رحيل: أ أنت بحاجة لخصائل الشعر لرفع معنويات الكلمة؟ أم بحاجة لأفكار العقل لتنجب النقطة؟

أم أنك تخاف جرأة النقطة المحجبة حين تلتقي بأحرف عارية تتوسل حجاب المعاني، لتستر المعنى وعورة الفكرة؟

كانت الإجابة كفيلة بأن تُحدث الفوضى في تركيز المدير حمدان بن علي ليرد: سأحضر لك حلم النقطة لتبقى حلم نقطة.

يتدخل غيث: الأحلام تحققها الأيادي البيضاء دون خربشات بأقلام سوداء، أجل من فضلك أحضر لنا الكتاب فالإجابة أصبحت واضحة.

كانت العصبية واضحة على ملامح سي حمدان وتزداد شيئا فشيئا كلما لم يجد الكتاب أين وضعته يا ترى؟

رحيل تحاول إخفاء توترها وقلقها وإحباطها من هذا الأسلوب الأسود...الذي يجعلها تصاب بخيبة أمل

رحيل تسرح لتتسمر عيناها في ركن الزاوية أين توجد سلة المهملات، التي سمحت لصورة النقطة التي

توسّلتها لتنقذها من اختناق يحاول قتلها فيصبح المعنى موت للنقطة، لتموت الفكرة.

تذهب مسرعة لتتأكد، فعلا ! إنه كتابها حلم نقطة..

غيث يقف مندهش، سي حمدان يطأطئ رأسه

تصرخ رحيل في وجه قائلة: يا سيدي الفاضل عليكم قبل أن تنقدوا الأعمال الأدبية لكونكم على علاقة بالأدب، أن تتعلموا قبلها الأدب وأن تحترموا مشاعر الكلمة.

من حقك ألا يعجبك الكتاب، ومن حقك النقد، لكن ليس من حقك بتاتا أن تُعري كرامة الكلمات بوضعها في سلة النفايات، هل هكذا تتعامل مع الكلمة أيها الكاتب العتيق؟ تقول أنك تكتب؟ اكتب سيدي على سلة النفايات لعلك حينها فقط تعي أين أنت وكلماتك من سلة النفايات.

تخرج رحيل مسرعة باكية لا ترى شيئا من حولها سوى السواد، إنه مؤلم جدا أن ترى كل ما تعبت من أجله يهان أمام مرأى عينيها، يتبعها غيث مسرع وراءها مناديا: تمهلي رحيل.

إنها تسرع بالمشي بل إنها تجري، انها تخرج من المؤسسة لا ترى

شيئا أمامها فالدموع الكثيفة أغلقت جدار النور عنها، تسرع لتقطع الشارع و سيارة آتية من الجهة اليمنى بسرعة وصوت الموسيقى فيها صاخب لا ينتبه لأي شيء ويكتم كل صراخ.

غيث يصرخ بقوة رحيل توقفي انتبهي، السيارة آتية، إنها لا تسمع لشيء.

لتنال منها بضربة قوية جعلها ترتفع عاليا لترميها على بعد أربع أمتار.. تقف السيارة، يأتي الشرطي الذي كان خارج وعي قانون المرور لينتبه قبل فوات الأوان، غيث يصل إلى رحيل، حبيبتي هل أنت بخير؟ إنه ضرب من الجنون أن تكون بخير..

إنه لا يستمع لشيء سوى للأنين، والدماء الغزيرة جعلت اللون الأبيض مخضب بالاحمرار، يلتم المارة، غيث يصرخ ببكاء، يحاول حملها للذهاب إلى المستشفى، لكن الشرطي يوقفه ستأتي سيارة الإسعاف، إنها مليئة بالكسور؟؟ وأي حركة يمكن أن تعرّضها للخطر، تمهل..

رحيل تنظر إلى غيث تشد على يديه تتمتم بهمس:

كان علي أن لا أخون كلماتي

وأن لا افصح عن سر المعاني

لربّما صرت أنا في وادي وهم في وادي

لا أريد مجاملة رشيقة

ولا عنوانا لقصيدة أنيقة

أريد فقط أن اكون مع حرف و نقطة حرة كانت أو مسجونة

فآخر الأشياء التي ننتظرها بالعادة هي حمق السنة

تعودت أن تلوم قبل أن تسال عن السر المكنون للأسئلة

وتراني أنا بين اللوم و الأذى

أمارس في وحدتي العمى

لكي تحيا كلماتي

لأموت أنا

.حبيبتي لا تتكلمي ارتاحي فقط.. ستحيا الكلمات و تحيا أنفاسك فيها و أحيا أنا بروحك..

صوت سيارة الإسعاف يقترب من المكان.. غيث يقترب منها أكثر يحتضنها في حين يحاول الشرطي إبعاده، إنه يزيدها عناقا، وكأنه يحس بأن شيء ما سيأخذها منه، فكلما يحاول إبعاده يزيد إصرارا على التمسك على التشبث بجسدها، يحاول أسر روحها لكي لا ترحل، تقع عينيه في عينيها الغريبتين النظرة، تبتسم.. لتعلن شفاه الروح الشهادة كنهاية.. ليبكي الرحيل.

سلوى يوسفي

ماستر

ماستر ©